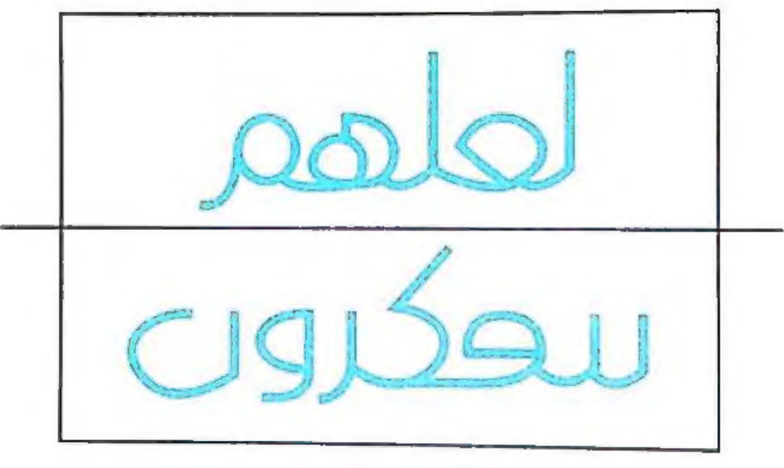
عبد الله بن مرزوق القرشي



قراءةٌ تفكُّريّة في آيات الكتاب العزيز

وجوه
WOJOOOH



الجزء الثاني

قراءةٌ تفكُّريَّة في آيات الكتاب العزيز

عبد الله بن مرزوق القرشي

لعلهم يتفكرون

الجزء الثاني

عبدالله القرشي

الطبعة الاولى

1436 هـ - 2015م



دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

ح/ عبدالله مرزوق فاحس القرشي، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، عبدالله مرزوق فاحس
لعلهم يتفكرون: الجزء الثاني./ عبدالله مرزوق فاحس القرشي -
الرياض، ١٤٣٦هـ
١٤٢ ص؛ .. سم
ردمك: ٢-٧٩٢٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١-القرآن والعلم ٢- القرآن-الاعجاز العلمي أ. العنوان
ديوي ٢٢٩،٤٥ ١٤٣٦/٤٢٩٢
رقم الإيداع: ٤٢٩٢/ ١٤٣٦
ردمك: ٢-٧٩٢٨-٠١-٦٠٣-٩٧٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد:

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة (لعلهم يتفكرون).. قراءةٌ تفكّرية في آيات الكتاب العزيز. وقد لقي الجزء الأول قبولًا ولله الحمد والمنة، وسمعت من أهل العلم المتخصصين في هذا الباب ما أرجو أن يكون من

عاجل البشرى، وأسأل الله ألا يحرمني من بشراه يوم ألقاه.

أكثر أوقاتنا بركةً تلك التي نصطفيها للقرآن، في تلاوته وتدبر معانيه. ولم يعظِّم القرآن حق التعظيم من أعطاه فَضْلَةَ وقته وهمه. يستحق ذلك الكتاب أن نختار له صَفْوَ أوقاتنا.. حين تصفو الروح وتزكو، وتشفّ عن أشواقها وفطرتها ونقائها، حين يصغي القلب لحركة اللسان، ويواطئه تدبرًا وتفكرا، واستماعًا وانتفاعا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) ﴾ [سورة المزمل: ٤-٦].

فانظر كيف اختار الله لتلاوة كتابه وترتيله خير الأوقات وأزكاها، فإن المقصود بهذا القرآن هو القلب، وفي هذا الوقت يكون القلب أكثر إصغاءً وانتفاعا. وقد تنزَّل القرآن حين تنزل على (قلب) محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة:٩٧]. فإذا كانت مواعظ القرآن وقوارعه لا تهزُّ ضميرك، فتحسس قلبك فإنك قد تركته مقفلا: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [سورة محمد: ٢٤]. رجلٌ أميٌّ بسيط يستمع القرآن بقلبه ويؤمن به، يعرف عن الله أضعاف ما يعرفه «المفكر الكبير» الذي مد بصره نحو البشر وما يسطرون وأعرض عن هدايات القرآن وأنواره.

أيها القارئ العزيز: هذا الكتاب بين يديك، محاولة جديدة للتفكّر في

آيات القرآن، وهي لا تخلو من فواتٍ يحتاج إلى استدراك، أو خطأ يحتاج إلى تصحيح؛ والعلم رحمٌ بين أهله.. لكنّ المقصود بعد ذلك أن نتعاون ونتواصى على (عبادة التفكّر)، وألا نحرم قلوبنا وعقولنا من بركات القرآن وهداياته. فإنْ أغراك هذا الكتاب بعبادة التفكر فإنَّ ذلك غاية ما أرجو وأتمنى، وأسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

المؤلف

عبدالله بن مرزوق القرشي

إيميل: a0503704440@gmail.com
تويتر: @aabualmonther



حلقات التحفيظ

تساءلتُ في نفسي وأنا أشاهد حلقات تحفيظ القرآن في المساجد: مَن صاحب هذه الفكرة ؟! متى بدأت جمعيات التحفيظ ؟! من كسب هذا الشرف العظيم، وأسس لهذه الفكرة حتى غدت حلقات التحفيظ ومعلّموها يلاحقون المساجد في المدن والقرى، ويتبعونها في السهول والجبال، وتخرّج عامة الأئمة في الحرمين وفي غير الحرمين من حلقاتها؟! لقد كانت البلاد قبل عام (١٣٨٢) دون نشاط منظم في تحفيظ القرآن في المساجد، سوى الجهود الفردية والمتفرقة، ثم كتب الله قيام هذه الفكرة العظيمة على يد رجل صالح من القارة الهندية، اسمه: محمد يوسف سيتي،

أسلم في صغره، وأحب القرآن وحلم بخدمته وتحفيظ أبناء المسلمين، في قصة جميلة حكاها الأستاذ خالد الفواز في مجلة البيان العدد (٢٥٣). رحم الله هذا الرجل المبارك، ورضي عنه وعن كل من شجعه وساعده.

هذا "الحفظ والتجويد" قد ساق الله له رجلًا مباركا، وأصبحت حلقات التحفيظ تعمر مساجدنا، وأبناؤها يُزيِّنون محاريبها بأصواتهم وتراتيلهم.

لماذا أُنزل القرآن ؟!

هل يكفي أن نحفظ القرآن ونجوّده ونرتله حتى نسلم من هجره والتقصير في حقه؟

في سورة النحل يخبر سبحانه أن التفكر في كلامه مقصدٌ من مقاصد إنزال القرآن، يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾[سورة النحل:٤٤].

إن حالَنا اليوم مع عبادة التفكر في آيات القرآن، يشبه حالنا مع عبادة حفظ القرآن وتجويده قبل عام (١٣٨٢) !

عبادة التفكر اليوم تشتكي إهمالنا، ولا شيء سوى الجهود الفردية وشبه المؤسسية المتفرقة. مع أننا في أمس الحاجة أن نعيد بناء علاقتنا مع القرآن، علاقة متكاملة فيها الحفظ والتجويد، والتفسير والتفكر، والحب والإيمان والعمل. إننا الأمة الوحيدة التي تملك نصًا ربانيًا لم يدخله التحريف،

متصلا بالسماء مع كل حرفٍ من حروفه. وقد جاءت الاكتشافات إثر الاكتشافات دون أن تمس خبرًا من أخباره، أو حقيقة من حقائقه بشكٍ أو ريبة. في داخل النص القرآني معانٍ عميقة لن تبلغها إلا بعبادة التفكر، وفي داخل النفس البشرية أغوار بعيدة لن تصل إليها هدايات القرآن إلا بعبادة التفكر. للجسد عبادة وعبادته الركوع والسجود والسعي في قضاء الحاجات، وللعقل عبادة وعبادته التفكر في كلام الله والتفكر في مخلوقاته. لو بحثنا عن طاقة العقل التفكّرية، وحسبنا كم صرفنا منها للتفكر في كلام البشر وتصرفاتهم، وكم صرفنا منها للتفكر في كلام الله لأدركنا جيدا معنى من معاني هذه الآية: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ [سورة الفرقان: ٣٠].

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم مشغولين بفهم القرآن والتفكر في كلام الله، ويصلون إلى أعماق معانيه ودلالاته، وفي المجلس الأعلى لقيادة الدولة العمرية، كان الدليل الذي يشهد لتقدم ابن عباس في فهمه وعلمه هو التفكر في كلام الله، وبهذا ترى أن القرآن هو الذي يقدم ويؤخر في إمامة الصلاة، والتفكر فيه هو الذي يقدم ويؤخر في مجالس القيادة والرأي والمشورة. روى البخاري في صحيحه: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ : " كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ، فَقَالَ : إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، فَقَالَ : أَجَلُ رَسُولِ اللهِ

ﷺأَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ " . فهو بهذا الفقه والعمق والتفكر استحق التقريب في مجلس القيادة والرأي والمشورة. وقد قال رسول الله ﷺ: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين".

فجر الجمعة

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: الم تَنْزِيلُ، وَهَلْ أَتَى " .

لماذا سورة السجدة والإنسان كل جمعة ؟!

هي سنة ثابتة عَلِمنا الحكمة من وراء ذلك أم لم نعلمها، ولكن لا مانع من التماس الحكمة والتفكر فيها. ومن أظهر المعاني في هاتين السورتين تثبيت الإيمان باليوم الآخر، وبعث الأشواق لنعيم الآخرة. وكم يحتاج المؤمن في طريقه الطويل، أن يتجاوز ببصيرته جدار الدنيا، وأن يمد بصره إلى ما وراء ذلك مما أخبر به ربه ومولاه. الإيمان باليوم الآخر ركن ركين للإيمان، وهو مادة الحياة التي تعيد إلى الروح زكاءها وقوتها. والمؤمن يلهج في صلاته كل ركعة :﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾. وما غفل قلبٌ عن

اليوم الآخر إلا ضعف أمام الشهوات، وتراخي أمام التحديات. وأكثر الشر والظلم والفجور سببه الإعراض عن اليوم الآخر: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾ [سورة الإنسان:٢٧].

إن من يقرأ هاتين السورتين كأنما ينتقل بروحه إلى اليوم الآخر، ويرى بعينه وجوه المجرمين ورؤوسهم الناكسة بين يدي الله، يتوسلون الرجعة والأوبة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [سورة السجدة: ١٢].

وكم في هذا الموقف من خزي بالغ، وحسرة عميقة. وما أوصلهم إلى هذا المصير إلا نسيان اليوم الآخر: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [سورة السجدة:١٤].

ثم يعود المؤمن بقلبه إلى الدنيا ويرى منظر المؤمن المتجافي عن مرقده ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦)﴾[سورة السجدة:١٦].

هؤلاء المتذكرون لليوم الآخر قد أعد الله لهم ما تقر به عيونهم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [سورة السجدة:١٧]. وكأن سورة الإنسان تفسير لهذه الآية، فإنها تكاد أن تكون في

وصف الجنة، وما أعده الله من كرامة أهلها. وَصَفَ أنهارها، وظلالها، وقطوفها، وحورها، وغلمانها، وأوانيها، ومزاجها، وبهجتها، ولباسها.. ثم قال لهم وهم في هذا النعيم: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ [سورة الإنسان:٢٢]. فكيف سيكون المؤمن المصلي في فجر الجمعة وهو يسمع هذه التذكرة؟! كيف ستكون روحه العائدة من هناك.. إلى زمن العمل والمهلة؟! إنه الإيمان باليوم الآخر وأشواق النعيم في الجنة.. وكم قسونا على أنفسنا حين ابتعدنا عن هذه المعاني، حتى جفّت ينابيع القلوب، وعظمت في أعيننا الدنيا ومتاعُها القليل.

إن أمامنا لقاء وأيُّ لقاء ! لقاءٌ مع الله.. ويلٌ لمن كفر به وأعرض عنه ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [سورة السجدة:١٠].

إن الإيمان باليوم الآخر لا يورث إهمال الدنيا والإعراض عنها، بل يورث المؤمنَ القوة على استثمارها والسعي فيها بما يرضي الله، فإنها مزرعة الآخرة، والعملُ الصالح في الدنيا هو الطريق الموصل إلى نعيم الجنة. وليس من المصادفة أن يقرن الله ذكر الآخرة في السورتين بالإنفاق والإطعام: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾[سورة السجدة:١٦]. وفي سورة الإنسان: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾

[سورة الإنسان:٧-٨]. والإنفاق يكون عن غنى، أما أولئك المنقطعون للعبادة فأيديهم ممدودة للصدقات، يأخذون ولا يُعطون. إن الإيمان باليوم الآخر يبعث الهمة لنفع الناس، وعمارة الحياة، وإنقاذ المظلومين المستضعفين، والدعوة إلى الهدى، والصبر على ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾[سورة السجدة: ٢٤].

وإذا قامت القيامة وفي يدك فسيلة، فلا ترمها، واغرسها فإنها عمل صالح يصلح لهذا اليوم العظيم. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) . [رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد].

وفي هاتين السورتين تذكير بالنشأة الأولى، وخلق الإنسان من ماء مهين. فالمؤمن لا تستبد به اللحظة الراهنة، ولا يسيطر عليه الواقع الضيق من حوله، بل يمد بصره قبل أن يكون شيئا مذكورا، ويمد بصره بعيدا إلى اليوم الآخر، ويعلم أن هؤلاء من حوله سيذهبون كما ذهبت القرون الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾[سورة السجدة: ٢٦] وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾[سورة الإنسان:٢٨]. وبهذا يكون المؤمن أقدر على الإعراض عنهم، والصبر على مواصلة الطريق،

إعراض العاملين عما يعرقل عملهم، وصبر الموقنين بما ينتظرهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾[سورة السجدة:٣٠] وفي سورة الإنسان: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [سورة الإنسان: ٢٤-٢٦].

وكم في هاتين السورتين من المعاني العظيمة، ينصت لها المؤمن بقلبه، فجر كل جمعة: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [سورة الإسراء:٧٨]. يجدد في قلبه إيمانه باليوم الآخر، ويبعث في روحه أشواق الجنة ونعيمها ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩)﴾ [سورة الإسراء:١٩].

الموهبة شرف ومسؤولية

يولَد الإنسان وهو لا يملك من أمره شيئًا، ويجد في نفسه بعض المواهب والقدرات التي لم يصل إليها بجهده وتعبه، بل هي مِنحة ربانية، وعطية إلهية. وحقُّ هذه المواهب شكرُ خالقها ومُعطيها سبحانه. وشكرُ النعمة يكون

بنسبتها لمنعمها، وإنفاقها واستثمارها فيما يحبه الله ويرضاه، فكما أن الموهبةَ شرفٌ ومزية، فإنها اختبارٌ ومسؤولية، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) (لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾ [سورة الأنعام:١٦٥].

إن زيادة الذكاء أو القوة أو المال أو نحو ذلك محل شرف ورفعة في أعين الناس: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [سورة القصص:٧٩]. ولا يكون كذلك عند الله حتى يؤدي العبد حق شكرها: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾ [سورة القصص:٨١].

لقد كبرت الموهبةُ في نفس قارون، ورأى أن ما أصابه من فضلٍ وغنى هو بسبب استحقاقه لذلك وفضله عند الله، فكانت موهبته وبالًا ونكالًا عليه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى (عِلْمٍ عِندِي) أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ [سورة القصص:٧٨]

لا يحق للغني أن يفاخر بماله وهو يمسكه عن أهل الحاجات، بل هذا المال ابتلاء واختبار، فإما أخذَ بيده إلى الجنة أو إلى النار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)(٤٤)﴾

[سورة الزخرف:٤٤]. فهذا القرآن ذكرٌ وتشريف، وهو في الوقت ذاته مسؤولية وتكليف.

ومن غفل عن مسؤولية الموهبة وابتلائها، استمتع بها في دنياه، ثم أوبقت أخراه.

- معيارٌ فرعوني في التفضيل:

من أهمِّ ما يميّز مجتمعًا عن آخر: معايير التفضيل والتقييم في ذلك المجتمع. داخل هذه المعاير تكمن ثقافة المجتمع ورؤاه وأخلاقه، وتنكشف قيم المجتمع في معايير تقييمه وتفضيله. في المجتمع الفرعوني كان معيار التفضيل والتقييم هو زخرف الدنيا وزينتها، وبذلك رأى فرعونُ نفسَه متفوقًا على موسى حد الغرور بنفسه والامتهان لغيره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ (هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾[سورة الزخرف:٥١-٥٣].

هكذا كان يُجري فرعون تفضيله وتقييمه، فالتفوق والفضل عنده يقاس بالملك وأسورة الذهب والفضة، بينما هناك معيارٌ رباني آخر يجعل موسى في أعلى علّيين، وفرعون بملكه وأنهاره وأسورته في أسفل سافلين.

كذلك كانوا مع محمد ﷺ، يستكثرون عليه شرف النبوة والرسالة، ويرون أن غيره أجدر بها، بناء على معاييرهم في التفضيل والتقييم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [سورة الزخرف: ٣١]. بينما كان اصطفاء النبوة، واختيار الرسالة، يجري على معيار غير معيارهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

وربنا سبحانه لا يفضل أحدًا لموهبته فحسب، بل يفضله بما يكنه في قلبه من معاني الإيمان والنقاء، وما يقدمه من أعمال البر والعطاء: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ [سورة التوبة: ٥٥].

والمجتمع المسلم عليه تبعة ومسؤولية في مراجعة معاييره بين الفينة والأخرى، وأن يكون معياره في التقديم والتفضيل معيارًا موافقا لما يحبه الله ورسوله، وأن نتباعد عن المعايير الجاهلية التي تقدم الرجل لماله أو نسبه أو غير ذلك. وفي معيار التقديم والتقييم قوةٌ بالغة في صرف الناس إلى ما يوجبه هذا المعيار.

وأكبر تفضيلا

صليت بالناس المغرب ذات مرة، في مسجدٍ قريب، فلما التفت بعد الصلاة رأيت شيخا كبيرا عرفه الناس بصلاته، وملازمة المسجد حبا ورَغَبا، وهو على هذا الحال عمرا مديدا. لم يكن من أصحاب المال والجاه، وفي آخر الصفوف وجوه القوم من أهل الغنى والجاه، يُتمُّون صلاتهم ! حدثتني نفسي حينها: لو انكشف لنا حجاب الغيب، واطلعنا على منازل الناس في الآخرة، أين سيكون هذا الشيخ الكبير الذي نأسى لفقره وحاله، وأين سيكون غيره من أهل الجاه والغنى؟! ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾ [سورة الإسراء: ٢١]. وكأنما انكشف لي وقتها كم نحن في لهو ولعب، وكم نحن في غفلة عن حقائق الآخرة وجاهها ومنازلها العالية.

هزني هذا الموقف واستشعار التفاوت الكبير بين الناس في دنياهم، والتفاوت الأعظم بين الناس في أخراهم، والسعيد من فطن لجاه الآخرة ومنازلها. إن سبقوك على دنياهم.. فسابقهم على آخرتك، وتذكر أن منزلتك في الدنيا محدودة بهذا العمر القصير، والغبن كل الغبن أن تفوت

عليك منازل الآخرة.. حيث البقاء والخلود. واجعل من تفاوت الناس في الدنيا عظة وتذكرة، لتفاوتهم العظيم في الآخرة.

الهوى عمى

يتسلط الهوى على البصيرة حتى يغدو صاحبه أعمى لا يبصر الحجج والحقائق ولا ينتفع بها، ولو كانت عظيمة مثل انشقاق القمر: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ) وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾ [سورة القمر: ١-٥].

لقد تسلط الهوى على فرعون حتى عمي عن كل الحجج والآيات، وحارب موسى وقومه، حتى رأى البحر ينفلق لموسى ومن معه، ولم يستبصر ولم ينتفع وتبعه بعد ذلك يحسب أنه قادر عليه ! ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ [سورة الأعراف:١٤٦].

مع الهوى.. لن ينتفع الإنسان بسمعه ولا بصره ولا عقله، ولن ينتفع بعلمه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ

سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣].

نعوذ بالله من الهوى والعمى، ونسأله سبحانه البصيرة والهدى، و﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾ [سورة الكهف: ١٧].

ألهاكم التكاثر

عن ماذا ألهانا هذا التكاثر ؟! ألهانا عن الحقائق والمصائر، التي تنكشف للعبد حين يزور المقابر، فيحضر الأجل، ويفوت العمل، وينكشف الغطاء، ويلاقي الجزاء، ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [سورة ق : ٢٢].

التكاثر لهوٌ خطير، يستجر قدم العبد، فلا يزال يُلهي العبد، ويُلهِي الجماعة، حتى يتفارط العمر، وتنتهي المهلة، ويندم حيث لا ينفع الندم. إن كل ما يشتغل به العبد لهوٌ ولعب، إلا ما ينفعه ويرفعه يوم يزور المقابر. وهذه أعمار الناس قد ذهبت في لهو التكاثر، فهو يكد ويتعب، ويلاحق

الدرهم والدينار، لا ليسد رمقه من جوع، ولا ليستر جسده من عري، إنما يسعى خلف المال؛ حتى يكون ماله " أكثر" من مال غيره، وولده "أكثر" من ولد غيره، ثم لا تزال أيامه تتفارط وهو في سكرة التكاثر والتفاخر، ولا يفيق من سكرته هذه إلا إذا غادر إلى داره الآخرة، حيث العلم والحقائق: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [سورة التكاثر:٣-٤].

إن الدار الدنيا دار لهو ولعب، وتفاخر وتكاثر، إلا من اتقى ربه ونهى النفس عن الهوى، أما الدار الآخرة فهي دار العلم والحقائق، والجزاء والحساب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ (وَتَكَاثُرٌ) فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾[سورة الحديد:٢٠].

لقد استجمع (التكاثُر) أسباب (الإلهاء)؛ فإن مادته وميدانه أهواء النفوس وشهواتها من الأموال والأولاد ونحوها، ثم يزيد الإلهاء حين تدخلها المنافسة والمغالبة، فتسترسل النفوس وتستفرغ وسعها وطاقتها، رغبة في السبق والغلبة. ثم يكتمل الإلهاء حين تخضع هذه المنافسة لمعيار الكثرة والكم والأرقام التي لا تتناهى. فيظل هذا التكاثر يلهو بأصحابه

ويلهيهم، حين يختار لهم ميدان الشهوة، ويدفعهم بالمنافسة، ويحكم هذه المنافسة بالكم والكثرة، أهواءٌ بعضها فوق بعض، تجتمع كلها في هذا "التكاثر".

وفي دين الله تعامل آخر مع شهوة الأموال والأولاد ونحوها، ومع المنافسة، ومع الكثرة. تعامل آخر يختلف عن قانون "التكاثر" الملهي عن الحقائق والبصائر.

أما الشهوات فقد هذبها وزكاها، فلم يستأصلها بالكلية، ولم يسترسل معها بالمنافسة والمكاثرة والمفاخرة. والمؤمن مع هذه النعم يفكر في الشكر لا الفخر: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [سورة التكاثر: ٨].

وأما المنافسة فقد أباحها الله، واختار لها ما يوصل إلى رضوان الله، ونعيم الآخرة. نعم هناك منافسة ولكن في أي شيء تكون المنافسة؟! قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [سورة المطففين:٢٦].

إن المنافسة طاقة عجيبة تبعث على العمل وتجويده والاستمرار فيه، وربما كان في المنافسة مالٌ للفائز، والأصل حرمة ذلك إلا ما كان فيه إقامة الدين ونصرته، وفي الحديث: "لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر". على تفاصيل معروفة عند الفقهاء.

وأما الكم والكثرة، فإنها في عمل الخير مطلوبة، لكنها تابعة وليست

متبوعة. إن الكم ليس المعيار الأهم في التفوق والسبق، كما هو عند الكفار: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ (أَكْثَرُ) أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾

[سورة سبأ: ٣٥].

بل السبق بالنية الصالحة، والعمل وفق الطاقة والاستطاعة. وفي هذه القصة درس وعبرة: روى أبوداوود والترمذي وغيرهم، عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا. قَالَ : فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ "، قُلْتُ : مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟"، قَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا . قَالَ الترمذي: هَذَا حَسَنٌ صَحِيحٌ. إن القصة لا تكشف الرقم الذي تصدق به أبوبكر رضي الله عنه، ولا الرقم الذي تصدق به عمر رضي الله عنه، لكنها تكشف لنا أن المعيار في السبق والتقديم كان في امتثال قول الله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[سورة التغابن:١٦]. وقد تصدق عمر بنصف ما يستطيع، أما أبوبكر فقد تصدق بكل ما يستطيع، فسبق بذلك ولو ما قدمه من مال أقل جمعا وعددا. ويفسره الحديث الذي رواه النسائي وابن حبان والحاكم وحسنه الألباني، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق

به، و رجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها" .

إنه حري بنا ونحن نعيش في هذا الزمان، الذي قامت فيه سوق التكاثر والتفاخر حتى في أعمال البر والتقوى، أن نعود إلى هذه السورة الكريمة، وأن نجدد في قلوبنا معانيها، ونعود لمعايير الشريعة في السبق والفوز، وأن نستيقظ للحقائق والمصائر، قبل أن نزور المقابر. نسأل الله السلامة والعافية.

عبادة نهي النفس عن الهوى

ولو أُبيح لك كلُّ شيء سوى "شجرةٍ واحدة".. لن تستغني عن هذه العبادة ! ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [سورة النازعات: ٤٠- ٤١]. هذه المعركة لا تضع أوزارها حتى يغادر الإنسان حياته الدنيا، أما قبل ذلك "فليس بعد". ولذلك يستنزل المؤمن هداية ربه وعونه في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾[سورة الفاتحة:٥-٦] .

وفي معركة الهوى لن يسلم المسلم من الخسارة، فإنه يخسر في بعض معاركها ولابد، فتنشأ معركة التوبة والأوبة. يخسر في هوى القلوب

غرورا أو جزعا أو غير ذلك من الذنوب القلبية، ويخسر في هوى الجوارح، لكن المؤمن أبدا يُحدِث بعد الذنب توبة، ويُتبع السيئة الحسنة تمحها. هذه الحقيقة تعطي المؤمن يقظة وقوة، وهو يستشعر أنها معركة دائمة، وأن الخسارة الحقيقية هي الاستسلام وتأخير التوبة.

إن عبادة نهي النفس عن الهوى هي التي تكشف الفرق بين عبادة الملائكة الذين لا يسأمون ولا يستحسرون، وليس في نفوسهم هوى يغالبهم في طاعة الله، وبين عبادة البشر الذين يغالبون أهواءهم، وينتصرون عليها بعدم الذنب تارة، وبالتوبة منه تارة أخرى.

فإذا بلغ المؤمن جنة ربه، توافق هواه مع نعيم ربه، وفتحت له خزائنها وخيراتها: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [سورة فصلت:٣١-٣٢].

وهو الذي يقبل التوبة

كل شيء يذكّره بالتوحيد.. ذنوبُه وجرائره التي اقترفها هي الأخرى تذكره بالتوحيد:

﴿إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت﴾.

إن صلاة الجنازة مشهد من مشاهد التوحيد، ولا أنسى ذلك المشهد المهيب والناس تسوي صفوفها من أجل الصلاة على أحد المسؤولين الكبار، وقد كان ملأ السمع والبصر، ثم ترى كل الإمكانات عاجزة أن تقدم له شيئا في رحلته إلى الآخرة، إلا الدعاء: ﴿إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت﴾.

ما أجمل التوبة بعد الذنب، وما أجمل التوحيد حين يخالط قلب التائب المنيب، وهو يوقن أنه لا يغفر الذنب إلى الله. بمثل هذا الإيمان يغفر الله الحوبة، ويقبل التوبة، ويقبله في عباده الصالحين.

الأب إبراهيم عليه السلام(3/1)

حبُّ الأبناء والذرية فطرةٌ مغروسة في قلب إبراهيم عليه السلام، وهذه الفطرة لم يخلقها إبراهيم في نفسه بل خلقها العليم الحكيم سبحانه:

- حين أخبره ربه بأسعد خبر وأعزه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾"تحركت فطرته في حب الأبناء والذرية؛ فخاطب ربه" ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

- وحين أرسل الله بعض ملائكته لإبراهيم بالبشرى، كانت البشرى التي اختارها الله له هي الأبناء والذرية، وربه أعلم بما في نفسه من التشوف والحب لهذه البشرى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ [سورة الذاريات:٢٨].

- وفي مقام الشكر وهو مقام جليل عُرِف به الخليل: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [سورة النحل:١٢١]. في هذا المقام يتذكر نعمة الولد ويشكر ربه، ويُخلِّد الله شكره في أشرف كتبه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾[سورة إبراهيم: ٣٩].

- لقد كان إبراهيم يدعو من قبلُ بأن يهبه الله الولد، واستجاب له ربه، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[سورة إبراهيم: ٣٩].

هذه الفطرة والعلاقة والحب بين إبراهيم عليه السلام وولده وذُرِّيته تستحق أن نتوقف عندها بالتأمل والتفكر؛ فخير الآباء هو الخليل إبراهيم -عليه السلام-، فنعم الأسوة ونعم القدوة، فهو أبٌ لإسماعيل وإسحاق وذريتهما، وأبٌ لرسولنا الكريمﷺ، وحين أثنى ربنا على اسم الإسلام وحسن اختياره، نسب ذلك لإبراهيم، واختار لإبراهيم صفة الأبوة دون غيرها من الصفات: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[سورة الحج: ٧٨].

وفي معنى الأبوة والذرية اختلف حال الخليل إبراهيم عليه السلام عن حال الخليل محمد ﷺ، فبينما رسولنا الأكرم ليس أبًا لأحد من رجالنا:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

فإن إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ [سورة مريم: ٤٩- ٥٠].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وتعامله الأبوي كثير من الفوائد والعبر، نكتفي منها بأربعة أمور:

١-لقد كان حبُّ الولد والذرية في قلب إبرهيم تابعًا لحب الله، كان حب الله هو إمام مشاعره وعواطفه، ومهما بلغ حب ولده وذريته إلا أن حب الله أعظم وأكبر؛ لقد أمره ربه أن يجعل زوجه هاجر وابنها إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، على خوفٍ وقلّة ومسغبة، فلم يمنعه حب الولد والشفقة عليه من الاستجابة لأمر الله. وفي صحيح البخاري وصف مؤثر للقصة، لمن تأملها بقلبه، وتخيل نفسه مع زوجه وابنه مأمورًا بهذا الأمر: "جاء بها (=هاجر) إبراهيمُ وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه

تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا ! ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون ".

ثم ابتلاه ربه البلاء المبين، بعدما كبر ابنه وبلغ معه السعي، جاءه أمر الله بأن يذبحه، وهنا تظهر المحبة والخُلّة لله تعالى في قلب إبراهيم، حيث يكون أمر الله وحبه والتقرب إليه مقدم على كل حب وقرب: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾[سورة الصافات: ١٠٢]، وذِكرُ الطريق لهذا الأمر لا يخلو من فائدة، فهو رؤيا في المنام، ورؤيا الأنبياء حق، ولكنه لا يصل لدرجة الوحي عن طريق جبريل عليه السلام، فضلا عن كلام الله له كفاحا. جاء أمر الله إليه عن طريق الرؤيا في المنام، والأمر عظيم للغاية، ذبح ولده وفلذة كبده بعدما بلغ معه السعي ! ومن تذكر ابنه، وتذكر الذبح بالسكين علم أن هذا هو البلاء المبين. ومع ذلك قدم الخليل حبه لله على كل حب، وبمثل هذا أصبح إبراهيم خليل الرحمن: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) ﴾ [سورة الصافات:١٢٥].

ولا يكمل هذا الامتثال في ذبح الولد إلا مع محبة الولد والشفقة عليه، ومع ذلك يستجيب لأمر الله في ذبحه، فيكون حب الله أكبر. ومَن أحب التأسي بإبراهيم -عليه السلام- فلا يعاند فطرته وطبيعته في حب الولد وغيره، ولكن يكون ذلك كله تابعا لحب الله، ويكون حب الله في قلبه أكبر من كل محبوب. وكم يقول المسلم في يومه وليلته: "الله أكبر" ؟! إن هذه الكلمة ليست للّسان فحسب، بل هي تذكير وتأكيد لهذه الحقيقة الكبرى التي جاء الأنبياء لتحقيقها في العباد والبلاد..

الأب إبراهيم عليه السلام (3/2)

ومن فوائد قصة إبراهيم عليه السلام الأبويه وعِبَرها:

٢- أن النَّسَب وحده لا يُعوَّل عليه في النجاة الأخروية، وأن الله لا يمنح أحدا عِزَّ الدنيا والتمكين فيها لنسب أو حسب. ولو كان في الأنساب ما يملك المرء به التمكين في الدنيا أو النجاة في الآخرة لكان ذلك النسب هو نسب إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد سأل ربه لذريته حين أخبره بفضله وإمامته: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ فجاء الجواب الرباني سنة ماضية لا تحابي أحدًا من

الخلق مهما كان قربه وفضله وإمامته: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أن الناس بعد ذلك ظلوا يراهنون على أنسابهم ويتّكلون عليها، فإنها تُعفيهم من وطأة العمل والمجاهدة، حتى ادّعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يعذبهم، فأعاد القرآن الحقيقة التي قالها لإبراهيم عليه السلام، وأنه لن ينجو أحد بنسب أو حسب، وأن الناس سواسية في ميزان العدل والمحاسبة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

وفي حياتنا اليوم نرى المسلمين أتباع إبراهيم عليه السلام في ضعف وشتات، يعانون من الظلم وتسلط الأعداء، والقيادة بأيدي غيرهم من الأبعدين عن دين ربهم، ذلك أن الله أجرى العدل على هذه الحياة، وأن من أخذ بأسبابها وجدّ واجتهد فيها، نال عزها والتمكين فيها، وأن الانتساب إلى الإسلام مع التفريط الظاهر في أسباب التفوق والقوة لا يغني عنّا من الأمر شيئا.

ومن مظاهر هذه السنة الربانية ما نراه اليوم في دول العالم، فإنه لا يعتمد نظام على تقديم الأكفأ إلا عزت الدولة وطال بقاؤها، فإذا اعتمدت

القرابة على حساب الكفاءة تسلل الضعف إلى أركانها، وفقدت أسباب عزها وبقائها، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣- أن سبيل النجاة في الآخرة والعزّ في الدنيا يتحصل بالهمة والنية، والعمل بالأسباب لا الاعتماد على الأنساب، ومن هنا كانت تربية الأبناء والاهتمام بصلاحهم طريقا واجبا لكل من أحب الخير لأبنائه. وقد اجتهد إبراهيم عليه السلام في إصلاح أبنائه، فكان يدعو ربه لدينهم ودنياهم، وكان يجتهد في وصيتهم بالخير، ويربيهم على الاستسلام لأمر ربه وشرعه، ويشاركهم في أعمال البر والتقوى. فكان آلُ إبراهيم نورَ التاريخ وبهاءه، وظلت ألسنة الخلق تلهج بسيرتهم والسلام عليهم.

- لقد كان إبراهيم يدعو لأبنائه في صلاح دينهم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾[سورة إبراهيم:٣٥]. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]. وبلغ دعاؤه لذريته البعيدة، حتى كان محمد ﷺ دعوةَ أبيه إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [سورة البقرة: ١٢٨-١٢٩].

والدعاء خيرٌ وبركة ولا يُعرض عنه إلا غافل محروم.

- وكان إبراهيم يدعو ربه في صلاح دنياهم، وأمنهم وأُنسهم ورزقهم الطيب:

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾[سورة إبراهيم:٣٧]. وهذا يؤكد أن الاهتمام بالأبناء يشمل إصلاح الدين والدنيا، ولذلك جاء التوجيه النبوي لمن كان حريصا على آخرته بالبذل والصدقة، أنّ ترك الأبناء في غنى وعافية وجهٌ من وجوه الخير والمعروف. عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : " كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ : لِي مَالٌ أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ ؟ قَالَ : لَا، قُلْتُ : فَالشَّطْرِ، قَالَ : لَا، قُلْتُ : فَالثُّلُثِ، قَالَ : الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ، فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ وَلَعَلَّ اللَّهَ يَرْفَعُكَ يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ " رواه البخاري ومسلم.

وأتباع إبراهيم اليوم يعانون ضعفا في دينهم ودنياهم، وينتظرون إصلاحًا يتأسّى بهذا النبي الكريم في الاهتمام بأمر دينهم، وتطوير دنياهم، حتى يكونوا كما أحب إبراهيم مخلصين لله وحده في عبادتهم،

بعيدًا عن الشركيات والخرافات، التي أضلت كثيرا من الناس، عامرة مساجدهم بإقامة الصلاة، ويعيشون في أمنٍ وأُلفة ورزقٍ واسع.

الأب إبراهيم عليه السلام (3/3)

ونختم بهذا المقال الحديثَ عن الفوائد والعِبَر المستنبطة من (أبوّة) أبينا إبراهيم عليه السلام. والحقُّ أن إبراهيم الخليل خير من نتأسى به في الأبوّة؛ فإن الله قد اختاره إمام هدى، ورضيه لنا أسوة وقدوة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الممتحنة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [سورة النحل: ١٢٣]. ومن ائْتمَّ بإبراهيم واتبعه واقتفى أثره، فبِأمر الله ورضاه قد اتبعه، فإن الله قد اختاره واصطفاه إمام هداية لمن جاء بعده: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

ولن نحقق معنى هذه الآية في قلوبنا حتى نعيد النظر في سيرته القرآنية مرةً بعد أخرى، ونملأ بها قلوبنا كأننا نراها رأي العين، ونتجاوز الإلف والعادة في هذه القصة، لنسمعها وكأننا نسمعها أول

مرة، ونتعامل مع أحداثها كما لو كنا مكانه، ثم نتعبد لله بحبه والتأسي به. كيف يكون الخليلُ إمامَنا ونحن نتتبع أقوال الحكماء في المشرق والمغرب أكثر من تتبعنا لحكمته؟! وكيف يكون إمامنا ونحن غافلون عن صوته حين يركع أو يرفع، أو يحب أو يكره ؟! إن الائتمام بإبراهيم شرف عظيم، لا يُنال بالظن والدعوى، فإن آثارَ خَطوِه ومسيره توصل إلى رضوان الله والجنة، والجنة لا تُدرك بالدعوى. وكم تخاصم القوم في إبراهيم وادّعوا أنهم أولى به، إلا أن الحقيقة لا تحابي ولا تجامل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [سورة آل عمران: ٦٧-٦٨].

نسأل الله أن يصطفينا في أتباع إبراهيم، المحبين له، والمتأسِّين بسيرته، فإنهم خير الأتباع، وفيهم الأنبياء والمرسلون، وعباد الله الصالحون.

ونرجع إلى ذكر الفوائد والعبر في (أُبوّته) ﷺ:

٤- وهي في قول الله حكاية عن خليله إبراهيم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (فَانظُرْ مَاذَا تَرَى)﴾ [سورة الصافات: ١٠٢]. فإبراهيم عليه السلام قد اجتهد في الدعاء لولده، واجتهد في تربيته، لكنه بعد ذلك لا يُجبره على امتثال أمر الله. فإن الإجبار ليس طريق الإيمان والعمل

الصالح، فالإيمان قرار ينبع من قلب المكلف، ولا يُقبل إيمان العبد حتى يكون طائعا مختارا. وقد عرف الناس في تاريخهم من يقهرهم على مذاهبهم وأديانهم بالحديد والنار، إلا أن الأنبياء وفي مقدمتهم إبراهيم عليه السلام لا يجبرون على الإيمان والعمل الصالح ولو كانوا أولادهم من أصلابهم. إنما هي الدعوة والإقناع والتأثير، فإذا آمن أحب الله إيمانه وقَبِله، ولذلك نجد في الآية الكريمة بعدما استجاب إبراهيم لأمر ربه، وشاور ابنه واستجاب، ثناء من الله على إرادتين مستقلّتين: ﴿ فَلَمَّا (أَسْلَمَا) وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [سورة الصافات:١٠٣].

يا تُرى ماذا كان سيصنع إبراهيم لو رفض ابنه الاستجابة واستعصى ؟! لن نستطيع الجزم دون خبر بيّن، ولكن يكفينا هنا طريقة الخليل في عرضه لابنه، فاحترم إرادته، وأناله شرف الاستجابة، فأخبر الله بإسلام الوالد وولده. وهذا معنى جليل في التربية على الإيمان والعمل الصالح. هذا محل اليقين، أما الظن، فيظهر أنه لن يجبره على الاستجابة، وقد رأينا من تعامل نوح مع ابنه ما يكشف تعامل النبي مع ابنه حين يعصي، قال ابن عاشور في تفسيره: "وليس إبراهيم مأموراً بذبح ابنه جبراً، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخرِ بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتُبر كافراً". ومسألة الإجبار على الإيمان والعمل الصالح مسألة كبيرة، تتعلق بصاحب المسئولية سواء كان أبا أو مديرا أو حاكما،

وهي بحاجة لبحث مستقل، ويبقى الأصل أن أمر الإيمان ليس طريقه القهر والجبر.

وكم نحن بحاجة إلى أن نتقن طريق التأثير والدعوة والإقناع مع أبنائنا في وقت أصبح المنع فيه متعسرا أو متعذرا.

٥- وهي في قول الله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [سورة إبراهيم:٣٩].

وفي هذه الآية عزاء لمن تأخرت ذريته، وطال انتظاره ورجاؤه.. لا تحزن؛ فأكثر الأبناء بركة جاؤوا بعد طول انتظار. ألا يسرك أن تنتظر كما انتظر خليل الرحمن؟! وأن تدعو كما كان يدعو؟!

ولئن فرح غيرك بالولد والذرية فافرح أن شابهت الخليل في شوقه وتشوّفه ودعائه وطول انتظاره. لقد تأخر الولد على إبراهيم عليه السلام حتى استغرب خبر البشرى وهو المؤمن بربه وفضله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [سورة الحجر:٥٣-٥٦].

إن إبراهيم أسوة لمن جاءه الولد، وأسوة لمن تأخر عنه الولد، أسوة لمن

تمنى الأبوة، وأسوة لمن حصّلها. ومن تأخرت عنه الذرية فظل صابرا محتسبا، يدعو ربه، ويرجو فضله، فقد اهتدى بهدي إمامه إبراهيم، وعسى أن يكون من أتباعه المرضيين.

﴿وخيرٌ أملا﴾

قال الله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا (وَخَيْرٌ أَمَلًا) (٤٦) ﴾[سورة الكهف:٤٦].

يقول ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: المال والبنون أيها الناس التي يفخر بها عيينة والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يتزين به في الحياة الدنيا، وليسا من عداد الآخرة ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ يقول: وما يعمل سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمال الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خير يا محمد عند ربك ثوابا من المال والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها(وَخَيْرٌ أَمَلا) يقول: وما يؤمل من ذلك سلمان

وصهيب وخباب، خير مما يؤمل عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما".

إنهم كانوا يمارسون صورةً خاطئة من (الأمل)، وكانت هذه الصورة شائعة ذائعة، ولم يكن علاجُ ذلك محاربةَ الأمل بالكلية، بل توجيههم للصورة النافعة منه، فالباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا. وهذا منهج قرآني في عدم إلغاء المفيد النافع بسبب الممارسات الخاطئة، بل المجاهدة والعمل في التواصل مع الصور النافعة ولو كان الآخرون يتعاملون معها بصورة خاطئة.

إن إقامة الدين والدنيا تتضرر كثيرا حين يجنح المصلحون إلى المبادرة للمنع المطلق كلما شاعت ظاهرة سيئة، فيمنعون بذلك خيرا كثيرا وهم لا يشعرون. إن الخير المحض لا يكاد يوجد إلا في جنةِ الخلد، وخير الدنيا مشوبٌ بالباطل والخطأ والاستغلال، وعمل المصلح هنا هو الاجتهاد في الانتقاء والترجيح، وتغليب الخير على الشر. الصلاة والصيام والجهاد والعلم ونحوها من أبواب الخير هي سبيل أهل الجنة، ولا يخلو زمان ممن يمارسها رياء وسمعة لتكون طريقه إلى النار، ولا يخلو زمان ممن يتستر خلفها لنواياه السيئة، فهل نمنع ذلك الخير العظيم من أجل هذا الشر ؟!

إن هناك فلسفات دنيوية قامت على هذا المنهج الخاطئ في التصحيح والإصلاح، وهو محاربة المظاهر السيئة باستئصال مادتها بالكلية، فيمنعون بذلك خيرا عظيما وهم لا يشعرون. إن الجشع والاحتكار

والتفاوت الكبير بين الطبقات والظلم الواقع على الكادحين، ليس مبررا صحيحا لمعاندة الملكية الفردية كما صنع الاشتراكيون، فإن في معاندة الطبيعة الإنسانية منعا لكثير من أسباب التطور والحياة.

وفي الواقع أمثلة كثيرة لتفكير خاطئ يتجه إليه بعض المصلحين، حين يضيقون ذرعا بمظاهر سيئة فيتجهون لاستئصال هذه المظاهر ولا يدرون أنهم بذلك منعوا خيرا عظيما. مثال ذلك: التنازع والخلاف الذي يُضيع جهد الأمة ويمزق مشاريعها، فيتمنى بعضهم الوحدة والاجتماع ومنع الخلاف بالكلية، ولا ينتبه هؤلاء أنهم بذلك يمنعون خيرا عظيما لا يتحقق بدون الخلاف، فكان الأولى أن يُمنع التنازع ولا يُستأصل الخلاف. والمقصود أن المظاهر الخاطئة لا تُداوى بالاستئصال بل بالتصحيح والعناية والمجاهدة. لا سيما ما كان غريزة وفطرة في الإنسان، فإن الله لا يخلق ذلك في العبد إلا لحكمة وفائدة، واستئصالها بالكلية جهل بالحكمة، وإضرار بالخلقة.

نعود للأمل، هذه الطاقة العجيبة وراء العمل. فلن نجد عملا عظيما إلا ومن ورائه أمل عظيم.

ومن الحكمة ونحن نبحث عن النهضة والتفوق، والسبق والريادة، أن نولي هذه الطاقة عناية عظيمة، وأن نستدرك ما هو موجود في خطابنا وطرائقنا مما يضر بهذه الطاقة ويضعفها. الأمل هو المنبع الذي يروي

عطش العاملين، ويحافظ على حياتهم رغم بُعد الشُّقة وعظيم المَشقَّة. الأمل هو الطاقة الدافعة لنهضة الفرد والجماعة والأمة. حتى ذلك الذي يذهب إلى وضوئه ويتجه إلى محرابه، هناك أمل أيقظ همته، وذلك المنفق من عزيز ماله هناك أمل يساعده على بسط يده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾ [سورة فاطر :٢٩-٣٠].

لا يصبر على وعثاء الطريق إلا أصدقاء الأمل، وخير الآمال ما كانت في الطريق إلى الله، وخير الأعمال ما ابتُغي بها وجه الله. بدون الأمل كل الطرق تبور.. حتى الطريق إلى الغفور الشكور !

ولِلأمل عُمْلةٌ مزيفة لا يتجه إليها الثناء، وهي ما كان منفصلا عن العمل، تعمل عمل المخدر والأوهام، هذا ليس أملا بل هو من أماني الغرور: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾ [سورة الحديد:١٤].

إن إقامة الدين وعمارة الأرض هدف عظيم، ولا تنتهض الهمة لذلك بغير أمل عظيم. ولا يوجد ما يمنع من الأمل في المال وزينة الحياة الدنيا إذا كان ذلك (تابعا) للأمل الأعظم في الباقيات الصالحات، وابتغاء

مرضات الله سبحانه.

وما أعظم المنة لمن احتسب النية في إيقاظ الأمل، وانتقى لنفسه وأحبابه وأمته خير الآمال وأزكاها.

وفي الحديث القدسي: "قال الله: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي" رواه البخاري ومسلم.

جدل المقاصد

في التعامل مع النص الشرعي سيظل الجدل بين أهل المقاصد وأهل الظاهر. وهناك من يغلو في اتباع المقاصد حتى يجور على النص نفسه، وفي المقابل هناك من يغلو في اتباع الظاهر حتى يحقق نقيض مقصود الشارع. لا نحتاج كثيرا من التأمل حتى ندرك خطأ الغلاة من أهل المقاصد وأهل الظاهر. ولكن بين هذين الغلوين نحن بحاجةٍ لكثير من التأمل والاجتهاد، حتى نحافظ على النص الشرعي في ظاهره ومقصوده. ويبقى اجتهاد الصحابة رضي الله عنهم مرجعية لهذه الاجتهادات، نعاير به اجتهادنا ونصحح به مسيرتنا. وكثيرٌ من الهاربين عن أحكام الشريعة يتخذون المقاصد بابًا للهروب من تكاليف الشريعة، ويزعمون أنهم يحافظون على مقاصدها. وربما وجدوا في غلو أهل الظاهر ما يروِّج

ضلالهم ويغري به. وقد لفت انتباهي في سورة التوبة أن هذا المسلك قديم قبل رسالة محمد ﷺ، وأنه باسم المقاصد يتم التخفف من أحكام الشريعة آنذاك، ويحسبون أنهم مازالوا متمسكين بها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾ [سورة التوبة: ٣٧].

فقد شق على هؤلاء الامتناع عن القتال في بعض الأشهر الحرم، فأصبحوا يؤخرونها ويجعلون شهورا مكانها، ويرون أنهم قد التزموا بالحكم ماداموا قد وافقوا الحكم وهو تحريم أربعة أشهر. هذا التعامل هو من جنس الغلو في المقاصد حتى يجور على النص والحكم ذاته. كما لو أراد أحدهم أن ينقل رمضان الموافق للحر، لشهر آخر يوافق البرد، ويرى أنه بصيامه ذلك الشهر قد التزم بحكم الشريعة. لقد سمى الله هذه الطريقة زيادة في الكفر، وضلالا، وتزيينا لسوء الأعمال. فنأخذ من هذه الآية أن التهرب من أحكام الشريعة باسم المقاصد قديم بقدم البشر والأهواء. وأن التعامل بمقاصد الشريعة له منهج وضوابط وإلا أصبح بابـًا للتفلت من أحكام الشريعة مع التزيين والتلبيس الذي يسكت الضمير وألمه.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾

يفقد الباطل فتنته وتأثيره ما لم يكن معه شيء من الحق يُلبِّس به. الباطل المحض لا يَرُوج على أكثر الخلق، فإن الإنسان بخِلقته وفطرته يحب أن يرضى عن اختياره وموقفه، والباطل المحض لا يمنحه هذا الرضا. وفي القرآن جاء النهي واضحا بيّنا: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ" [سورة البقرة: ٤٢]. وهذا النهي يفيد المؤمن في خاصة نفسه ودعوته، وفي تعامله مع الدعوات الأخرى.

أما خاصة نفسه ودعوته: فيكون على حذر دائم، ويقظة مستمرة أن يلبس الحق بالباطل، فإنه إن خفي هذا الخلط والتلبيس على بعض الخلق فإنه لا يخفى على رب الخلق سبحانه، وسيجازيه مجازاة الضال المضل. وبعض الذين يتورّطون في مواقف ضالة، من المتنسبين للعلم والدعوة، لا يكاد يكاشف نفسه أو غيره بهذا الضلال، بل يلبس هذا الباطل ببعض الحق، حتى يهدأ ضميره، ويحسب أنه على شيء. ثم يغري الناس باتباع باطله، واختيار موقفه. وربما يَرُوج الباطل بما معه من الحق، وهذا هو التلبيس والتضليل والعياذ بالله. ثم يتمم تلبيسه بتتبعه لأخطاء خصومه وهفواتهم، ولا يدري أن ما معه من حق، وما تتبعه من أخطاء خصومه

لا يشفع له عند ربه في الباطل الذي يريد أن يخفيه بهذا الصنيع.

ومن العجيب أنك لا تجد موقفا ضالا، أو ظلما بيِّنًا في داخل العالم الإسلامي، إلا وجدت معه بعض المُعمَّمين من المتسبين للعلم والدين!

لقد حيرتني بعض المواقف وأنا أشاهد بعض العلماء يختارون لأنفسهم موقفا في غاية الظلم والضلال، كمن ينحاز ويدافع عن ما يفعله النظام النصيري في الشعب السوري! إن شراء الذمم وحده لا يكفي في تفسير المشهد! وحين تسمع لحديث بعضهم وتبريره يتكشّف لك معنى الآية: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [سورة البقرة: ٤٢]، معه بعض الحق، فامتطاه ليصل به إلى الباطل، وهو في صنيعه هذا يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع الآخرين، حتى إذا تطاول به الزمن أَلِف الموقف واطمأنّ إليه. إن هذه الآية تخص أهل العلم أكثر من غيرهم، فإن في تلبيسهم إفساد كبير.

ومن اتقى الله وخاف مقامه بين يدي ربه، كان من هذا التلبيس على خوف وحذر، فإن له في النفس خفايا وزوايا، وله عمل في دهاليز النفس البشرية يطّلع عليها من يعلم السر وأخفى: ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ [سورة القيامة: ١٤- ١٥].

ألا تعجب أن كل فرقة ضالة، وكل جماعة ظالمة، لها من الحديث ما تدافع به عن موقفها، وتجادل به عن اختيارها؟! إن عامة ما يقال هنا

هو من تلبيس الحق بالباطل، ومن آمن بالله واليوم الآخر علم حاجته لمكاشفة النفس، وعرضها على ميزان العدل والحق دون خلط أو تلبيس.

هذا ما يتعلق بالمؤمن في خاصة نفسه ودعوته، أما ما يتعلق بالآخرين، فإن الآية تكشف لنا أنه قد يأتي مع الباطل بعض الحق، والمنصف لا يحمله ذلك الباطل على إنكار الحق الذي معه، فيقف في الجملة ضد هذا التلبيس، فإذا جاء التفصيل قَبِل الحق ولو كان مصدره ذلك الملبس الضلّيل. وهذا مقام رفيع من التجرد للحق، والتعالي عن العاطفة والتعصب والأحكام المجملة. فالمسلم مع كرهه لليهود وشركهم، لا يكره من يعظمه اليهود -موسى عليه السلام- وتعظيم اليهود لموسى عليه السلام لا ينتقص من حبِّنا له شيئا. وأولئك المغرضون الضالون في كل زمان ومكان يمكن أن تجد في كلامهم بعض الحق يتشبثون ويلبسون به، فالكره والضلال والمقاصد الرديئة لقائل هذا الكلام ليست كافية لرفض الحق الذي معهم، ومن رفضه من أجل قائله فقد سقط في هواه، وشابه ذلك الملبس الضليل في تقديم هواه على اتباع الحق ! كل حق يقوله المبطلون فنحن أولى به. وقبولنا لذلك الحق يُضعِف تلبيسهم، ويجرّد باطلهم، ويجدد انحيازنا للمبدأ والحق، وليس للتعصب والهوى. وما لم يحافظ الإنسان على ذلك، فإنه سيترك كثيرا من الحق، وسينجر إلى كثير من الباطل، بسبب الخصومة والمعاندة. فمهما تطاول اليهود على نبينا محمد ﷺ فلن ننسى فضل موسى ولن نقصر في حبه. رغم إنهم يتطاولون

على محمد تعظيما لموسى كما يظنون. نحتاج هذا المعنى كثيرا في خصوماتنا العصرية، حين تشتد الخصومة بين الفرق والجماعات والأحزاب، فكثيرا ما يرد الحقَّ أهلُ الحق بسبب تلبيس الخصوم وما معهم من باطل. وذلك يضعف أهل الحق في ميزان الله، وينتقص من أسباب تأييد الله ونصرته.

يبقى هنا أن يتذكر الشاب المسلم وهو يستمع لمشايخه وعلمائه أنه ليس من بينهم معصوم عن تلبيس الحق بالباطل، وهذا يؤكد له مسؤوليته أمام الله في اتباع البرهان والحجة والسلطان، وألا يترك نفسه كالميت بين يدي مغسله، كما يقال، بل يدقق ويحقق، ويجتهد وسعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

لا تيأس

فقد كان موسى هائما على وجهه، هاربا خائفا.. ولم يكن يدري، أن الأيام تخبِّئ له الشرف الأعظم: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾[سورة طه:١٣]. لقد كان ليوسف مكان على عرش مصر، لن يصل إليه وهو ثاوٍ عند أبويه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

[سورة يوسف:٢١]. لقد بقي لنا من قصة موسى صيام عاشوراء، يجدد الآمال في قلوبنا، ويسلي المظلومين، ويذكرهم أن فرج الله أقوى من كل الفراعنة. إنه يوم شكرٍ وفألٍ وأمل. وبقيت الرؤيا الصالحة من قصة يوسف -عليه السلام- تنتصر للأمل وسط الكربة. لحكمةٍ يعلمها الله.. ابتدأ الله قصة يوسف برؤيا صالحة، كانت له ولأبيه عزاء وسلوة وقت الغربة والكربة. وفي الحديث: "لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ . قالوا : وما المُبَشِّراتُ ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ" رواه البخاري.

الصيام.. لماذا ؟

منذ أن وعيت وأنا أسمع في حكمة الصيام هذه الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [سورة البقرة:١٨٣]. وكنت لا أتبيّن معناها ومغزاها ؟! فلما نظرت إلى المعركة الدائمة في هذه الحياة، وهي شرط النجاح والفلاح لهذا الإنسان، فإذا هي معركة بين (الهوى، والإرادة).

ولن تجد نجاحا في دنيا أو آخرة إلا بعد أن يخوض هذه المعركة الطويلة المضنية، ولن يبقى أحد في نجاحه وفلاحه إلا استمر منتصرا

في معركة الهوى والإرادة. هنا غرفة العمليات لكل ما تراه عينك من فوز أو خسارة. ذلك التاجر الذي نجح في تجارته كان في ميدان المعركة كل صباح، هواه يأمره بالنوم، وإرادته تأمره بالعمل، ولو أطاع هواه ما كسبت تجارته. وذلك الطالب الخرّيج المتفوق على زملائه، والمحتفى به من أهله وأصحابه، ما كان له أن يذوق هذا النجاح، لولا انتصاره في معركة الهوى مع الإرادة، فبينما بعض زملائه يطيعون أهواءهم في لهو ولعب، وحديث مسترسل لا يعود عليهم بالنفع والفائدة، كان هذا المتفوق يزمُّ هواه، ويطيع إرادته، ويجبر نفسه على اختيار الجد بدل اللعب، والمذاكرة بدل الكسل. وتلك الدولة التي تفوقت في اقتصادها، وأحكمت قوتها، وأتقنت إدارتها، لم تصل إلى ذلك إلا بعد انتصار يومي في معركة الهوى والإرادة.

ولذلك جاء الطريق إلى الجنة واضحا بلا لبس، مستقيما بلا عوج، يمكن أن تختصره في هذه الكلمات المعدودة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١]. هذا المفتاح الذي تفتح به جنات الدنيا والآخرة: الانتصار في معركة الهوى .

إن الهوى مع الغفلة والاسترسال يكبر ويقوى ويتسلط ويستبد، حتى يصبح إلها مطاعا إن أمر أو نهى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ

﴿عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [سورة الجاثية: ٢٣]. وهو مع اليقظة والتدريب والاستعانة بالله يهزل ويضعف، ويخاف ويرتبك، والصيام جاء دورة تدريبية عجيبة، تتكرر كل عام لكل من يشهد أن لا إله إلا الله، لتقوية الإرادة، وإضعاف الهوى؛ فيرى الماء الزلال في حال عطشه، فيأمره هواه أن يمد يده، وأن يروي عطشه، ثم يعصي هواه ويصبر على الظمأ، لأنه (يريد) ألا يشرب. ويتكرر بصره على طعام لذيذ، وهواه يأمره أن يتناول لقمة واحدة، فيعصي هواه لأنه (يريد) ألا يأكل، وهكذا الأمر في شهوته. ويظل الصائم بياض يومه في معاندة لهواه، وتمرد وثورة حتى يصبح هواه محكوما لا حاكما، وتابعا لا متبوعا.

إن كل شهوة لشراب أو طعام لا يستجيب لها الصائم، هي قوة يمدّ بها إرادته، وضعف يُلحقه بهواه، حتى تكون المعركة بينهما بعد ذلك لصالح الإرادة الصالحة، على الهوى الفاسد وتلك هي التقوى ! التقوى هي التي منعت يوسف حين خلت به امرأة العزيز في جمالها وشغفها وزينتها، وهو في فتوته وشبابه، في قصرها وحكمها يُرجى خيرها ويُخشى عقابها، ثم تقول له: هيت لك.. وتقول طبيعته: هيت لك.. وتقول هيبتها: هيت لك، وكأنه الصائم ينظر إلى كوب الماء البارد وهو على تعب وظمأ، فيقول: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ! الله أكبر.. إن في جرس هذه الكلمة وحروفها

صوت النصر والظفر، بعد معركة شديدة مع الهوى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [سورة يوسف: ٢٤].

إنها معركة الهوى حين يلبس ثوب الإغراء، تتبعها معركة الهوى حين أخذ عصاه الغليظة، ووجهه العابس، وهدد وتوعد: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [سورة يوسف: ٣٢]. ورُبّ إرادة تهزم الهوى المغري وتجبن عن مقاومة الهوى المخيف، حيث السجن والإهانة وتشويه السمعة، لكن الذي أعانه في الأولى أعانه في الأخرى فاستعصم، وانتصرت إرادته، وقال كلمة المحارب النبيل في المعركة المقدسة: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: ٣٣]. إنه يقول ذلك وفي جسده ما في أجساد الناس من رغبة وهوى، وفي نفسه ما في نفوس الناس من حب للحرية وكره للسجن والصغار، لكنه لا يريد أن تنهزم إرادته الصالحة أمام هواه الفاسد. فتلك هي معركته التي يرجو فوزها ويخاف خسارتها. وصبر يوسف وثبت واستعصم حتى فرح وانتصر كما يفرح الصائم عند فطره: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾ [سورة يوسف: ٩٠].



الصيام وهزيمة جالوت

أهم ما في التقوى أمران: إرادةٌ قوية تغلب الهوى وتحكمه، ومراقبةٌ لله تقود هذه الإرادة نحو مرضاة الله. فإن الإرادة وحدها دون أن تكون وفق مرضاة الله، قد تتحقق فيمن نجحوا نجاحا دنيويا وهم بعيدون عن مرضاة الله. فالنجاح في العلم أو الطب أو الهندسة أو الإدارة أو الاقتصاد أو الجيش يحتاج لإرادة قوية تغلب هوى الكسل والعجز والدعة والاسترخاء. وكثير من دول الغرب اليوم انتصرت إرادتهم وتفوقوا على من سواهم، لكنّ ذلك وحده لم يجعلهم من الأتقياء. فالتقوى تحتاج لانتصار الإرادة، وأن تكون هذه الإرادة تابعة لما يحبه الله ويرضاه، وأن تحضر المراقبة لله حبا ورَغَبا ورَهَبا. فإذا اكتمل هذان الركنان فقد اكتملت التقوى لصاحبها.

الصيام كتبه الله علينا من أجل التقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ [سورة البقرة:١٨٣]. ولِأهميته وبالغِ تأثيره كان من الفرائض الثابتة في الشرائع السماوية: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

في المقال الماضي حاولنا أن نفهم كيف يكون الصيام طريقا للتقوى،

ورأينا أن الصيام عن الطعام والشراب والشهوة -مع ما في الطبيعة البشرية من الحاجة إليها والتشوّف لها- هو تقوية للإرادة، وإضعاف لسلطان الهوى.. وتلك هي التقوى أو من التقوى. وهنا نكمل محاولة الفهم والتفكر في كون الصيام طريقا للتقوى.

هناك قصة عجيبة تساعد على فهم الصيام وهدفه، إنها قصة طالوت، وقد بعثه الله ملكا لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٧]. ثم جاءت الآية والمعجزة على اختيار الله له واصطفائه للمُلْك؛ التابوت تحمله الملائكة: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٨].

لقد كان طالوت ملكا ربانيا، على رأس جيش من بني إسرائيل، لملاقاة جالوت وجنوده. وكان جيش طالوت لا يعاني أبدا من ضعف القناعة بمشروعية المعركة وضرورتها، فهم الذي طلبوا وطالبوا نبيهم: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]، وهدف القتال واضح بيّن : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[سورة البقرة: ٢٤٦]. وترسخت هذه القناعة بآية معجزة، لا تجعل للريبة مدخلا . وهنا طالوت يدرك بما آتاه ربه من

بسطة العلم أن التحدي هو تحدي الإرادة، وأن القناعة الفكرية وحدها لا تكفي، ولو تأكدت بالآيات والمعجزات، فلابد من إرادةٍ صادقة، وعزمٍ راسخ، ليتحول العلم إلى عمل، والقناعة إلى امتثال. أما العلم بدون عمل، والقناعة دون امتثال فهو سبيل المغضوب عليهم والعياذ بالله. فجاء الاختبار الرباني للإرادة، ليستبين أهل العزم والصدق: ﴿إِنَّ اللهَّ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩] فاسّاقط أكثر الجيش أمام هذا الاختبار، وشربوا منه إلا قليلا منهم. إن من تنتصر إرادته على شهوة الماء جدير بأن تنتصر إرادته في ساحة القتال، حين ينتصر الأقوى إرادةً وليس الأكثر عددا. وحين تمايز أهل الإرادة والصدق والعزم، ساروا إلى جالوت وجنوده، فاحتاج القوم عند ملاقاتهم للتعلق بالله ومراقبته حبا ورغبا ورهبا: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهَّ) كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهَّ وَاللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩]. وهنا تستكمل التقوى أركانها، والعاقبة للمتقين: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهَّ ﴾ [سورة البقرة:٢٥١].

وفي الآية الأخرى يقول الله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [سورة البقرة:٤٥] وهي من هذا الباب، إرادة ومراقبة، والأوامر الشرعية

يُصدِّق بعضها بعضا: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [سورة النساء:٨٢].

والصيام هو طريق التقوى، فإنه لا يوجد مثل الصيام يوقظ في القلب مراقبة الله، ويذهب للإرادة يقويها، وللهوى فيضعفه."كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لَه إلَّا الصَّومَ، فإنَّهُ لي وأنا أجزي بِه" (متفق عليه).

إن منع الجيش من شرب الماء لم يكن عقابا ولا تعنتا، بل كان لهدف نبيل، حتى يتمايز أهل الصبر والإرادة لمناجزة العدو والانتصار عليه. وجاءت الرخصة بغرفة ماء رحمة وتيسيرا، وهكذا فريضة الصيام ليست للظمأ والعطش والعنت بل هي لحكمة عظيمة ومقصد كريم، وفيها من الرخصة والتيسير ما فيها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

أتذكّر هنا آية تشبه هدف الصيام، وتُذكّر بقصة طالوت، وجاءت بتفصيل وتصريح بديع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾[سورة المائدة: ٩٤]. فهنا شهوة الصيد وإغراؤه، تطاله يده ورمحه لو أراد.. ولكن يتركه

المؤمن بغلبة إرادته على هواه، وذلك من أجل الله.. وتلك هي التقوى. والشواهد في ذلك كثيرة. والمقصود هنا أن نفطن لمقصود الصيام وحكمته، ونتعبد لله بالصيام، ونتعبد لله بتحقيق مقصوده وحكمته في مسيرة الحياة وإغراءاتها.

"من لمْ يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ بِهِ، فليسَ للهِ حاجَةٌ في أنِ يَدَعَ طعَامَهُ وشرَابَهُ" (رواه البخاري).

إن الهوى خصم عنيد ومراوغ، ويأتي للعبد بصورة الترغيب والترهيب، ويتوارى في المال والنساء والولد والمنصب والشهرة وغير ذلك. والانتصار على الهوى لا يكون باستئصال شأفته، فإن ذلك ضرب من الهروب والعجز، ولم تأت الشريعة بذلك، بل بالتحكم فيه حتى يكون تابعا لا متبوعا. وتبقى المجاهدة ما بقيت الروح، ويحدث المؤمن بعد كل زلة أوبة، ويُتبع السيئة الحسنة، ولن يستغني المؤمن عن عبادة نهي النفس عن الهوى، ولو أبيح له كل شيء إلا تلك الشجرة التي أكل منها أبونا آدم وأمنا حواء ! ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾[سورة طه: ١٢٢].



﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾

في ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر الكريم، قرأ الإمام في المسجد النبوي هذه الآية: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾

[سورة المنافقون:٨].

لقد قرأها الإمام في "المدينة" التي أرادها المنافقون في تلك الحادثة.. قرأها الإمام في ليلة السابع والعشرين من رمضان، حيث يكون موطئ القدمين فيها غنيمة من فرط الزحام ! وهنا عبرةٌ وأيُّ عبرة !

إن "الأعز" هو الذي سينشر اللهُ دينَه حتى يأتيه الناس من كل أقطار الدنيا، يبتغون صلاةً في مسجده.. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيمتد مسجدُه حتى يأتي على بيوتات المدينة مِن حوله، ثم هو على سعته وساحاته لا يكفي لأتباعه.. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيظل عزيزا حتى في قبره.. هنا في المدينة، تأتي

الوفود بالحب والدموع، ليلا ونهارا.. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ !

إن "الأعز" هو الذي سيجعل الله مسجده ومدينته في مَنَعة.. حتى من الدجال الأكبر، حين يعيث في الأرض الفساد.. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ !

إن "الأعز" هو من يتسابق سادةُ الناس وضعفاؤهم على مكانٍ في روضته، أو إطعامٍ في مسجده. حيث سيكون الأمان والإيمان.. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾!

ولو بعث الله هذا "الأذل" من قبره هو وأتباعه، ثم سمع تأمينهم في الصلاة، أو نشيجهم وبكاءهم في الدعاء.. سيرتد إلى قبره خوفا ورهبا ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المنافقون: ٤]

صدق الله العظيم، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أحسن من الله حديثا:

- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)﴾ [سورة المنافقون:٨].

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر: ١٠].



الآمال النافعة والأوهام الخادعة

إن التفاؤل والأمل الشرعي يهدي إلى البر والعمل الصالح، فإذا كان الأمل يجعل صاحبه يسترخي عن التوبة ويقصر في الطاعة ويقيم على المعصية فإنه أملٌ خادع، لا يرضاه الله ورسوله ﷺ. الأمل المشروع هو ما أمدّ العبد بالصبر والقوة والنشاط للعمل الصالح. قال الحسن -رحمه الله-: "إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل. وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن فأساءا العمل". فما زاد العبدَ برا وعملا صالحا فإنه من حسن الظن بالله، ومن الأمل النافع. وما أفضى للتكاسل عن الطاعات، والمداومة على السيئات فإنه أمل خادع، لا يهدي إلى البر ولا يوصل صاحبه إلى الجنة. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ [وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ] حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

﴾ [سورة الحديد:١٣-١٥]. وفي حق الكفار يقول الله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا [وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ *] فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [سورة الحجر:٢-٣].

إن الأمل النافع وحسن الظن بالله هو الذي يعين على القيام بالعبادات ظنا بالله الكريم أن يتقبلها، وهو الذي يعين على الإنفاق والإحسان ظنا بالله الكريم أن يخلفها، أما المتشائم سيء الظن بربه، فلا تنبسط يده بالصدقة والمعروف: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ * وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٨].

التفاؤل النافع يجعل المؤمن في راحة بالٍ مهما أصابه، وعينُه تتخطى الصعاب وتقتنص الفرص. وربما استمعتَ لمتشائم فصدَق فيما يراه من العوائق والغصص، واستمعتَ لمتفائل وصدَق فيما يراه من الطرائق والفرص ! وكلٌ ينتقي من الواقع ما يناسبه ويشاكله، ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٦٠] لكنك ستجد العين المتفائلة التي ترى الطرائق والفرص تستنهض صاحبَها للعمل، والعين التي ترى العوائق والغصص تثبِّطه عن النهضة والعمل. إن المؤمن يعلم أن فضل الله واسع فلا يقعد يأسا وقنوطا، وهو إن فعل ذلك فإنما استزله الشيطان بوعد الفقر. وكما يدعو التفاؤلُ والأملُ للعمل، فإن العملَ ذاته سر من

أسرار الأمل؛ فالشكاية والتذمر، والضيق والكدر، طحالب النفوس.. لا تنمو إلا في المياه الراكدة . إن الجلسة مع الناجحين والعاملين عافية للروح والأمل، والمتشائم يُعدِي بتشاؤمه وأكداره. إن أخطر اللصوص من تسلط على "تفاؤلك وأملك" وسرقه على حين غفلة منك . وأنفع الأصدقاء.. أملٌ يسكن فؤادك؛ كأنما هو الرجل الصالح يأخذ بيدك كلما عثرت قدمك، أو ضاق صدرك.

تفقد الحياة سرها وبهجتها إذا لم تنتظر فيها الجميل. الآباء يتابعون خطوات أبنائهم وفي قلوبهم الأمل، والفقير يخرج من ضيق حاله، ويسعى في طلب رزقه، ومن أمامه الرزق والأمل، ولولا الأمل وحسن الظن ما خرج الطائر من عشه، يحلق في السماء يبحث عن رزقه. ولولا الأمل ما خرج الأطفال من بيوتهم كما تخرج العصافير، يطلبون العلم، ويستعدون للمستقبل الجميل. ولولا الأمل ما عكف العلماء في مختبراتهم يبحثون عن الدواء بحث الموقن بلقائه.

التفاؤل والأمل.. مثل الشمعة المضيئة داخل نفسك، فحاذر عليها من أفواه محبيك كما تحاذر من أفواه شانئيك.



حيّ على الصبر والتصبّر

يخطئ من يظن أن الصبر فضيلةٌ مختصة بأهل الإيمان، بل هو خلق لازم لكل من يروم نجاحا وفلاحا في دينه أو دنياه. إن هذه الدنيا لا تصفو لأهل الحق بل هي المدافعة والمنافسة، وهم يتسابقون مع غيرهم على النصر والظفر بالصبر والتواصي به. وقد حكى القرآن حديث أهل الشرك والضلال، وهم يناوئون رسوله ﷺ ويحاربون دينه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)﴾

[سورة ص:٦].

إنهم يتمسكون بالصبر في معركتهم مع أهل الحق، ويتواصون به. وأهل الإيمان بالله واليوم الآخر أولى بهذا الصبر والتواصي به.

وقد جاء في السورة ذاتها خطاب للنبي محمد ﷺ بعدما ذكر المشركين وأسلافهم، وعنادهم وصبرهم: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾ [سورة ص:١٧]. حين يكون أهل الباطل أرسخ قدما في الصبر والمصابرة فسيغلبون، وما غلبوا أهل الحق إلا لتفريطهم في سنن النصر والغلبة. الإيمان لا يغني عن الصبر

بل يدعو إليه ويعين عليه.

إن الصبر ليس مرحلة عابرة بل صديق دائم يتذرع به أهل الحاجات لقضاء حاجاتهم. إنه يشبه صداقة الإنسان لإيمانه وأعماله الصالحة، ويشبه عنايته بموافقة الحق والصواب: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾[سورة العصر: ١-٣].

والصبر شجرة طيبة تنمو في النفس بالرعاية والعناية ﴿وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ﴾ [متفق عليه]. المؤمن لا يتمنى الشدة ولكن إذا ابتلي بها نظر إليها على أنها فرصة لعبادة الصبر والتصبر، والشدة تستخرج من القلب حقائقه، فإن كان من أهل الإيمان أظهرت إيمانه وتألهه لربه، وإن كان منافقا أظهرت خبث قلبه.

وفي يوم الأحزاب مرت الشدة الواحدة على الناس يومهم ذاك. أما أهل النفاق فأظهرت نفاقهم: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾ [سورة الأحزاب:١١-١٢]. وأما المؤمنون فظهر إيمانهم وصبرهم ويقينهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

(٢٢) ﴾ [سورة الأحزاب:٢٢]. فإنهم علموا أن طريق الجنة دونه ابتلاء ومحنة، فلما رأوها ازدادوا إيمانا وتسليما: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [سورة البقرة: ٢١٤]. ليس بالضرورة أن ينتظر العبد شدةً عظيمة يتصبر لها، بل في كل يوم تعرض لك فرص الصبر، في غم يصيبك، أو أذى يلحقك، أو شهوة تتزين لك، أو طاعة تحتاج معها للإرادة والصبر. هذه ليست مكدرات تفسد حياتك، بل هي فرص سانحة تعمر بها حياتك وتتزين بها أمام ربك. رُبَّ أذى يبلغك من عابر في الطريق وأنت تقدر عليه، فتحتاج للصبر تكظم به غيظك وتملك به نفسك.

متى ستتعبد لله بعبادة الصبر العظيمة ونحن نتحسس من كل أذى أو كدر. إن المزعجات والمكدرات تهتف في أذنك: حيَّ على الصبر والتصبر. فأجبها بالعزم والإيمان: لا حول ولا قوة إلا بالله. أعز الخلق على الله منحه ربه الفرصة تلو الفرصة للصبر والمصابرة، فآذاه قومه في نفسه، وكذبوه، واتهموه، ووضعوا السلى على رأسه وهو يقول بلسان حاله: لبيك يارب وسعديك. ويصبر ويصابر. وآذوه في أصحابه، واتهموه في عرضه، ومازاده إلا إيمانا وتسليما. فأحبه الله ورضي عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ [سورة الأنفال:٤٦].

إن الأمم الأخرى تفوقت علينا بصبرها ومصابرتها، وكل نجاح تراه عينك صغر أم كبر وراءه صبر ومصابرة. وحقيق بالمؤمن ألا يسبقه الآخرون إلى فضيلة الصبر. ومن معاني الصبرِ الثباتُ على طريقك، وألا يستفزك خصومك عن طريقك، وألا تفقد اتجاهك وتفرط في مسيرتك، وتغرق في ردود الأفعال المستمرة. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ [سورة الروم:٦٠].

المؤمن قاصدٌ في طريقه لا يسمح لأعدائه أن يوهنوا سيره، أو يغيروا قبلته واتجاهه. ومهما بلغ إيمانك فإن الصبر لن يفقد مرارته وآلامه، ولكن عاقبته الراحة والرضا. وكلما وجدت طعم الألم فاغمس فؤادك في هذا البلسم الشافي، فإن له أثر عجيب في تقوية النفس ومداواة جراحها: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [سورة الطور:٤٨-٤٩].

السمعة غالية

تأخذ "السمعة" مكانا خاصا داخل النفس البشرية، وكثيرا ما يكون الأذى الجسدي أهون على الحرِّ من أذيته في سمعته؛ فالأذية في السمعة لها وجعٌ خاص يصل إلى خفايا النفس وأعماقها. هكذا خَلَق الله الإنسان، وتوجُّعه من أجل سمعته أمرٌ خلقي جبلي لا يخضع للإرادة والثقافة. ويظل الإنسان كذلك حتى حين يخرج من إطاره الشخصي الفردي إلى إطارٍ اعتباري مثل المؤسسة أو الشركة أو الدولة، فإن سمعة الشركة تبقى من أثمن ممتلكاتها، وكثيرا ما يختارها الخصوم والأعداء في حروبهم القذرة. قد يظن بعضهم أن الإخلاص لله يقتضي عدم الاكتراث بأمر السمعة، وهذا فهم خاطئ للإخلاص وفهم خاطئ للسمعة.

إن السمعة في هذا السياق ليست العمل من أجل الناس، إنما هي المصداقية والحق الذي يتألم الإنسان في تشويهه، السمعة هنا هي الحق المحفوظ في شرائع السماء، فلا يجوز قذف الإنسان والافتراء عليه بغير برهان. وأئمة المخلصين هم الأنبياء وكانوا يتألمون من أذيتهم في سمعتهم، وما انتقص هذا من إخلاصهم شيئا.

وفي هذه القصة دلالة عجيبة على عمق التأثر بشأن السمعة، فقد روى

البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا، إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ، قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، قَالَ: فَجَمَحَ مُوسَى بِأَثَرِهِ، يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَةِ مُوسَى، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، فَقَامَ الْحَجَرُ بَعْدُ، حَتَّى نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللهِ إِنَّهُ بِالْحَجَرِ نَدَبٌ سِتَّةٌ، أَوْ سَبْعَةٌ، ضَرْبُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام بِالْحَجَرِ " .

وكان هذا من أذيتهم التي أخبر بها سبحانه في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ (آذَوْا مُوسَى) فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩]. فانظر كيف تأذى كليم الرحمن من هذه الفرية في حقه، وكيف دافع عنه ربه بمعجزةٍ خاصة !

وقبل موسى ذكر لنا القرآن قصة يوسف عليه السلام حين شوّه القوم سمعته زورا وبهتانا، واتهموه في أخلاقه بما هو منه براء. ودخل السجن مظلوما مغبونا، حتى أذن الله له بالفرج، وجاءه رسول الملك يعرض عليه الحرية ويعرض عليه القرب من الملك، فجعلها يوسف في كفة، وجعل سمعته في كفة فآثر نقاء السمعة على الحرية والجاه: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ

فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾

[سورة يوسف:٥٠].

وكان بالإمكان أن يرجع الرسول إلى ربه ثم لا يعود، ويكون قد فاتته الحرية، وفاته القرب من الملك، ولا ضير.. فإن الكريم قد يصبر على أذى السجن والبعد والجفاء ولا يصبر على تشويه سمعته.

ويلٌ لمن يؤذي الناس في سمعتهم، ويلٌ له في الدنيا وويلٌ له في الآخرة. إن مواقع التواصل الاجتماعي اليوم تكتظ بالأذية والتشويه، ويسترخص كثير من الناس الكلمة العابرة يقولها في تشويه السمعة بلا بينة ولا برهان، بل وصل الأمر إلى تأسيس الشركات، وتوظيف الناس، وصرف الرواتب لهدف وحيد وهو استهداف بعض المسلمين وتشويه سمعتهم، ومن كانت له معرفة بالواقع يعرف قصة الأسماء الوهمية وما وراءها من أنشطة وأجندات، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [سورة هود:١٢٣]

والطريق إلى الله طريق محفوف بالمكاره، والمؤمن هو الذي يحمي لسانه وبصره وسمعه من أذيةٍ بغير حق، ومع ذلك يصبر ويصابر فيما يلقاه من أذية على هذا الطريق، والأذية أمر واقع ولابد: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾

[سورة آل عمران:١٨٦].

الصبر والتقوى والاستمرار في طريق الخير والدعوة هي عدة المؤمن في مواجهة الأذية وتشويه السمعة، ولك رب كريم يدافع عنك ما دمت صابرا متقيا، مشتغلا بالبر والتقوى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [سورة الحج:٣٨].

وتذكر دائما أن خصومك يعملون على تشويه سمعتك وهم لا يملكون البراءة ولا الوجاهة، إنما يملكها رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ) مِمَّا قَالُوا وَكَانَ (عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩].

البراءة من الله وحده، والوجاهة من الله وحده، وطريقها الصبر على الأذى، والعزيمة على مواصلة الطريق في البر والتقوى.

العفو.. سيرةٌ وسريرة

هناك شيءٌ ما يربطنا بسورة يوسف عليه السلام، منذ أن يكون الطفل صغيرا في حلقة القرآن يحفظ ويراجع، وحتى يصبح شيخا كبيرا يسمع التلاوة في مذياعه.. وسورةُ يوسف لها تأثيرٌ خاص في نفسه، يجد لها أُنْسا

ونشاطا حين يصل إليها وكأنه كان في انتظارها ! ربما لأنها قصة مليئة بالدموع والآهات، والدروس والآيات. والنفس البشرية تتفاعل مع القصة ما لا تتفاعل مع غيرها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. [سورة يوسف: ٣].

من قبل كان المشهد الأكثر تأثيرا في نفسي، قصة يوسف في شبابه وامرأة العزيز تراوده عن نفسه، وهو يقول: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ [سورة يوسف:٢٣]. ثم تراوده مع النسوة وهو يقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[سورة يوسف:٣٣].

ولاريب أن هذا المشهد مشهد عظيم، لشابٍّ يجد ما يجده كل شاب من نوازع الطبيعة، ودواعي الفتنة، ويبتلى فيها بالإغراء.. والتهديد، ثم يقاوم ذلك كله بإيمان وصبر وثبات.

مع الأيام شعرت أن في قصة يوسف ما هو أعظم وأصعب من هذا النجاح، وهو ابتلاء العفو والتسامح، والتعالي عن المعاناة الخاصة، والإخلاص للهدف الأول الذي اختاره لحياته وهو الدعوة إلى الله والإصلاح. وكل ما يمكن أن يقال في هذه القصة سيكون بيننا وبينه حجاب، يحرمنا من استشعاره والتأثر به، حتى نضع أنفسنا في مكانه ونتساءل بصدق هل نستطيع أن نسمو هذا السمو ؟!

إن العفو في قصة يوسف لم يكن قرارا عابرا محدودا بموقف معين،

بل كان (سيرة وسريرة) ! وظل العفو والتسامح، والإخلاص لأهدافه الأولى سيرة وهديا وسلوكا ثابتا، وسريرة صافية لا تحتفظ بالأحقاد والأغلال. لقد مر على يوسف ثلاثة مواقف يمكن أن تورط حياته بالغل والحقد، وأن تحرفه عن مسيرته وأهدافه السامية. وإذا تورط القلب في جنحة الحقد والغل، أصبح مرتعا لأسوأ المشاعر، واجتمع في قلبه من الأعباء ما ينوء به ظهره، وما يُقعدُه عن التحليق عاليا في أهدافه ومُثُله . فهؤلاء إخوته يأخذونه من حضن أبيه وأمه بأيدٍ تتظاهر بالرحمة وفي قلوبهم نية القتل وجرمه ! ثم يضعونه بأيديهم في الجب ويتركونه وحيدا يواجه مصيره في الكربة والغربة، حتى أصبح هذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم بضاعة تباع وتشترى ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[سورة يوسف:١٩].

كم كان هذا التواطؤ على هذه الجريمة العظيمة قاسيا على قلب الفتى الصغير ! وكم كان هذا الموقف الشنيع قادرا على افتراس طهارة قلبه ونقائه وصفائه ! لولا أن الله أكرمه بهذا العفو وجعله سيرة وسريرة .

ولا يزال هذا البغي والظلم يلاحقه حتى التقاهم في مصر وهو في عزه وسؤدده، وهم يقولون: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾! [سورة يوسف:٧٧]

ثم يتعرض لظلم آخر لا يقل عنه وقعا وتأثيرا، وذلك حين تمالأ عليه

النظام، وقرر سجنه من بعد ما رأوا الآيات على براءته، ودخل السجن في تهمة رخيصة لأكثر خلق الله عفة ومروءة! ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾![سورة يوسف: ٣٥]

والعجيب أنه يدخل السجن ثم لا تؤثر هذه المواقف على سيرته وسريرته، ويبقى في عافية نفسية تجعله يُعرض عن هذه الآلام الخاصة، ويظل محسنا كعادته كأنها حياته السابقة عافية ورفاه. وشهد له أصحابه هناك بالإحسان ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة يوسف:٣٦].

وحين فاضت نفسه بالحديث.. كانت عن أهدافه السامية، ودعوته وإصلاحه. كيف استطاع أن يتناسى ما أصابه؟! وكيف استطاع أن يبقى وفيا لهدفه الأول وألا ينحرف عنه مهما أصابه من ظلم وتواطؤ وأذى ؟! ثم يخرج صاحبه من السجن بعد علاقة حميمة بُنيت على العاطفة والإحسان، ويطلب منه أن يذكره عند ربه، ثم لا يذكره! ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[سورة يوسف: ٤٢].

وهذا الموقف جدير بأن يصل العتب إلى أعماق النفس، وأن يشك الإنسان بعدها في جدوى الإحسان! ثم نرى يوسف بعد هذه المعاناة العظيمة في أفق آخر لا تصل إليه الأحقاد، ولا تحجبه التجارب الخاصة مهما كان ألمها عن طريقه الذي اختاره لنفسه، وهدفه الذي ارتضاه لعمره.

أما إخوته : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة يوسف:٩٢]

ويأتي بهم ويقربهم ويحسن إليهم كأنها أحسنوا إليه ولم يسيؤوا.

وأما النظام الذي سجنه واتهمه، فيشارك معه في الإصلاح وإنقاذ البلاد، وينسى آلامه الخاصة من أجل الناس والعامة. وأما صاحبه الذي نسيه ونسي إحسانه وبقي بعده في السجن بضع سنين، فلا يسمح لنفسه بعتابه ويتعامل معه كأن شيئا لم يكن.

إن صورة يوسف وهيئته في غاية الجمال، وأجمل منها قلبه بين جنبيه، الذي اتخذ العفو والتسامح سيرة وسريرة. وظل وفيا لإحسانه، ووفيا لمُثُله وأهدافه.

أيها الدعاة إلى الله.. أيها المصلحون.. الطريق طويل، ويعرض للداعية والمصلح ما يعرض له من الظلم والأذى، والتحدي أن يبقى حب الخير والإحسان هو ما يقود مشاعره، وأفكاره، وأحاديثه وأعماله. وألا يحرفه عن أهدافه السامية ظلم البعيد والرفيق، وخصومات الطريق. العفو شجاعة ونقاء.. وانتصار على نوازع النفس للانتقام. وأسعد الناس بخُلُق العفو صاحبه الذي يعيش سعادة الإحسان، ومتعة النسيان. بعكس الحقود الذي يحمل في نفسه ما ينوء به ظهره، وينطفئ به نوره. ومن العجب أن ترى من يستدل بسورة يوسف على حسد الأقارب..

وينسى أن يستدل بها على عفو القريب وتسامحه مهما بلغت أذيتهم !

السلام على يوسف يوم ولد.. والسلام عليه يوم رمي.. والسلام عليه يوم سجن.. والسلام عليه يوم بقي عفوا ومحسنا، وداعية ومصلحا.

﴿واصطنعتك لنفسي﴾

ليس هناك أجلّ ولا أعظم من هذه الكلمة، يسمعها العبد من ربِّه الكبيرِ المتعال!.

كان موسى –عليه السلام– في غربةٍ عن وطنه، وهو يسير في ظلمة الليل وبرده ووحشته، مع زوجه الصالحة بنت الرجل الصالح، غريبان.. يلتمسان نورا ودفئا وهداية ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾ [سورة طه: ١٠]. ولم يكن يدري موسى أن خطواته في تلك الليلة الموحشة، كانت تقرّبه من الشرف الأعظم الذي كان ينتظره، لقد كان موسى على موعدٍ وأجلٍ مسمى، مع شرف الرسالة، وكلام الرب سبحانه.

أيُّ شرف أعظم من سماعك لكلام الرب ليس بينك وبينه ترجمان

؟! أيُّ طمأنية وسكينة.. وأيُّ نعمة ومِنَّة أعظم من سماعك لربك وهو يقول لك: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه: ٤١]، هذا أعظم الحب والقرب، والاختصاص والولاية. نعم، إن بعض العباد يصنعهم الله على عينه، بحسن أقداره، وجميل اختياره، أولئك الأصفياء الأولياء، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم. إن موسى الذي سمع هذه الكلمة الحانية، كان في خوفٍ ووجل منذ أن استهلَّ صبيا، فقد وُلد مستحقا للقتل في قانون الفرعون، ومِن خوف أمه عليه وضعته في التابوت، ثم قذفت به في اليمّ، وظل فؤادها فارغا إن كادت لتبدي به، لولا أن ربط الله على قلبها. لو علمنا أن هذا الجنين وهو في بطن أمه يصطنعه الله لنفسه، هل كنا سنتوقع أنه سيولد في خوف من القتل؟! وهل كنا نظن أنه سيُقذف به صغيرا ضعيفا في اليم؟! تلك صناعة الرب لأنبيائه وأشرف أوليائه!.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾[سورة البقرة:٢١٦]، ثم يأخذه عدو الله الظالم الكافر، ولا تسأل عن قلب الأم وهي تنتظر ما يصنع هذا الفرعون بابنها.

ثم يقدر الله على موسى أن يَقْتل، فيتآمر عليه القوم ليقتلوه، ويخرج هائما على وجهه خائفا يترقب، مِن ورائه الطلب والثأر، ومِن أمامه الغربة والفاقة، ومع هذا.. «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»!.

ماذا كان يدور بخلد موسى وهو يسابق القوم أن يدركوه، والقتلُ قاب قوسين أو أدنى؟!، هل كان يظن وهو يسير مغموما حزينا أن الشرف الأعظم في انتظاره؟!، وأن ربه يبتليه ويربيه ويصطنعه لنفسه؟!، لقد قاسى موسى آلام الغربة، وهو بعيد عن وطنه وأقاربه، وأصحابه وأحبابه. واضطر موسى أن يعمل أجيرا بعدما كان في قصر المُلك ورفاهيته، ورغم ذلك.. «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»!.

إن هذه الأقدار والأحداث لم تكن تجري على سبيل المصادفة، بل هي الصناعة الربانية لهذا السيد العظيم، الذي يحبه الله في عليائه، وتحبه ملائكته، وعباده الصالحون، ويُعدّه ربه للمهمة الكبرى.. النبوة والرسالة.

حين أخبر الله موسى عن اصطفائه واختياره لرسالته، ذكّره بسنوات عمره التي كانت تجري أحداثها على عين الله، وكانت مخاوفها ومتاعبها من صناعة الله لعبده ومصطفاه، فذكّره ربه بقصة ميلاده، وما عانته أمه ولاقته من الخوف والترقب.. لكنه سيعود إليها ولو وصل إلى يد العدو!، وذكّره ربه بما لقيه من الغم والهم بعدما قتل الرجل، وذكّره بما ابتلاه ربه من الفتن ﴿وفتناك فتونا﴾، وذكّره ربه بسنوات الغربة التي قضاها في أهل مدين، حتى تم تأهيله وإعداده للمهمة الكبرى الخاصة بالعلي الأعلى سبحانه.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾

[سورة طه:٣٧-٤١].

أيها المؤمن بأن فوق هذا الملكوت رباً عظيماً، يدبر ويقدر: تأكد أن أمة محمد ﷺ كريمة على الله، وأن الله يصنعها على عينه، وأن الصناعة الربانية لا تستجيب لأهوائنا وعقولنا القاصرة، ولا تستعجل لعجلتنا. ولو كان هناك طريق للعزة والنصرة ليس فيه بلاء ولا فتنة، ولا غم ولا خوف، ولا صبر وانتظار، لكان موسى أولى به وأحرى. ومِن رحمة الله أنه ينزل مع كل بلاء رحمة، فموسى بعد أن قذفته أمه في اليم، حفظه الله من الموت والغرق، ولما وصل للفرعون أنطق الله الرحمة وأحاطه بها حتى لا تصله يد الظلم والقتل، وحين أصبح فؤاد أمه فارغا وعانت ما عانت، ردّه الله إليها تضمه وترضعه. وحين قتل الرجل وتآمر القوم عليه بعث إليه رجلا يسعى يخبره ويحذره، ثم أنجاه الله من القوم الظالمين، وأغناه ربه بعمل يده! ومع كل بلاء رحمة.

حين تراقب الصراع بين أمة محمد ﷺ وأعدائها من الصهاينة وأتباعهم، وما يقع على هذه الأمة المرحومة من ظلم وطغيان، وكيد وتآمر، فلا تغرق في الأخبار والأحداث اليومية، وتذكر أن الله يصنع أتباع محمد وموسى وإبراهيم على عينه، وأن الله يصطنعهم لنفسه، وأن الخوف من الاستئصال في حال النشأة، والخوف من القتل في حال الفتوة والقوة، وأن الهم والغم والفتنة ما هو إلا طريق الصناعة والرعاية، لِقدَرِ الله الغالب: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

[سورة يوسف:٢١].

﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾

ركبتُ مع سائقِ أجرةٍ على حين زحامٍ شديد، وكنت أنتظر الوصول والخلاص من هذه المشقة الكئيبة. تذكرت أنه سيبقى من بعدي في هذا الزحام يبحث عن مشوارٍ جديد، وهو في كل يومٍ يعاني مع هذا الشقاء. سألته عن عمله وأحواله.. فرأيت شكرًا ورضًا لا تخطئه العين، رغم عوزه ونصبه ! فتجدد في نفسي أن الغنى غنى القلب، وأن السعادة ليست مما في أيدي الناس بل مما في قلوبهم. اللهم لا تجعل الغنى في أيدينا،

والفقر والشقاء في قلوبنا. الشكرُ هو علاقة خاصة بين العبد وربه، تجعله في حب وقربٍ دائم. لا تخلو الحياة من نعمة ولا تخلو من حرمان، أما الشاكر فيقرِّب نعمَه حوله، حتى تحيط به إحاطة الجنة والنعيم المقيم، ولا يزال ينظر في هذه النعم ويذكر ربه شاكرا وحامدا. وأما الجَحُود فإن عينه تقتحم النعم مِن حوله، وتبحث نفسُه الكنود عن الألم في حاضره، والحسرة في ماضيه، ويظل يجمع من حوله ما يجعل صدره ضيِّقا حَرَجًا!

في الأوراد والأذكار شكرٌ متنوع ومتكرر، على شَربةِ الماء، وأكلة الغذاء، على الذهاب والإياب.. حتى تفترش السعادةُ حياته وقلبه. مع الشكر لن تعدم ما يسعدك ويبهجك ولو كانت كِسرةً من طعام، ودون الشكر يملُّ المرء حتى من المنِّ والسلوى -والعياذ بالله-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ٦١].

للنعمة قيمة وبهجة تتجدد مع الشكر والحمد، وللقلب ينابيعٌ من الرضا والسكينة تجفُّ بالغفلة عن الذكر والشكر. ولو انكشفت لنا قلوب الخلق لرأينا كيف يهتز القلب للشكر كما تهتز الأرض الطيبة للغيث المغيث، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [سورة الحج:٥].

أجمل ما في الشكر ليس الزيادة التي تأذَّن الله بها للشاكرين، بل العلاقة الراقية بين العبد وربه، وهو يتمتم دائما وأبدا بالحمد والشكر، وهو يشعر بالحياء من ربِّه من كثرة ما ينعم عليه، ويتعاهده بالحفظ والرعاية. حتى إن القلب الشاكر يعرض له بعض الألم والحرمان فيستحيي من ربه أن يراه حزينا مع ما هو فيه من النعم العظيمة. حقيقٌ بهذا الشاكر لربه أن يجازى بجنس عمله من الغفور الشكور. حقيقٌ به أن يجد برد الشكر في حياته الدنيا، سعادةً في قلبه، وسكينة في حياته، وزيادة وإحسانا في دينه ودنياه. إن الله يحب من عبده أن يذكر نعمة الله عليه، ولذلك جاء هذا الأمر الواضح ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ في سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة في ثلاثة مواضع، وإبراهيم، والأحزاب، وفاطر. غير الآيات التي ذكرت هذا المعنى بألفاظ أخرى. إنها عبادة مأمورة محبوبة عند الله أن نذكر نعمة الله علينا. وحين نكرر سورة الفاتحة نتعرف على الله بالرحمة، وارتبطت الرحمة بالإحسان والنعمة، وفي سورة الرحمن بيَّن النعم وفصّلها، ثم يقول في كل مرة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن]. وحين يأمرنا الله بذكره ذكرا كثيرا ترى أن ذلك على سبيل الحب والشكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ [سورة الأحزاب:٤١-٤٤].

جرِّب وأنت ترى بعض النعم عند غيرك وتتحسر عليها، أن تفكر في مجموع حياتك وحياته، وأن تتخيل أن تكون في مسلاخه.. فستفطن للنعم التي عندك وليست عنده، وستفطن للبلاء عنده وليس عندك، ولن ترضى أن تمنحه حياتك مقابل حياته. نحن نعيش في نعم عظيمة، لا يفسدها إلا الطمع والنفس الكنود. إننا نبني شخصية وهمية في الذهن ليست موجودة في الخارج، ونقارن أنفسنا بها فيصيبنا النكد والإحباط، ونذهل عن سعادة وعبادة الشكر. لو فكر الفاروق عمر بطريقتنا هذه لأصابه الوهن والإحباط، فإنه سيرى أباهريرة أحفظ منه للحديث، وخالد بن الوليد أمكن منه في قيادة الحروب، وأبا ذرٍّ أصدق لهجة، وعثمان أكثر مالا.. حتى ينسى أنه الفاروق عمر، أفضل هذه الأمة بعد الصديق رضي الله عنهم وأرضاهم. اجتماع النعيم من أطرافه لن يتحصل لأحدٍ في هذه الدنيا، والموعد الجنة. أما اليوم فإن فاتتك نعمة، فقد كسبت أخرى. وإن أصابك بلاء فقد حفظك من غيره. ولا يوجد في الدنيا مثل هذا الشخص الذي تطمع أن تكون مثله، وقد جمع من كل شخص نعمته وموهبته. وحق الشكر أن تتحرر من هذا الوهم، وتنعتق من هذا الطمع والتشوف الخادع. وتقضي أيامك في ذكر نعمة الله عليك، ويلهج قلبك مع لسانك شكرا لله وحمدا.. واهنأ بالسعادة، وأبشر بالزيادة.. ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾ [سورة الزمر:٢٠].



التفاؤل.. مع المكاره.. توهب الحياة

منذ أن يستهل الصبيُّ ويستقبل الحياة وهو يتعلم قانون الحياة والأمل، فإن نعمة الحياة توهَب للإنسان بعد حمله كُرها ووضعه كُرها، وكأن الحياة تلقِّن أصحابها بأن من وراء العسر يسرا، ومن وراء الكُره نعمةً وخيرا. وكأن كل كره موصول بنعمة، وكل عناء موصول برخاء. لقد اتصلت المكاره باليسر والنعم حتى كادت أن تكون رسلها التي تبشر بها. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] هل وُهبت الحياة لأحد دون أن يمر على هذا الكُره والعناء ؟! إنه درس بالغ يلقِّننا قانون الحياة والأمل، ويعلمنا التماسك والصبر أمام الكُره والعسر. بعدد الوجوه التي تراها، بعدد الأحياء الذين مروا من هنا، بعدد الأجيال القادمة.. نحن نسمع أصوات النعمة بعد الكربة، واليسر بعد العسر. وفي كل غيث مغيث نرى في برقه المخيف، ونسمع في صوت رعده أن مع العسر يسرا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾ [سورة الروم:٢٤].



الصفا والمروة

خيرٌ عظيم أن يسعى المسلم بين الصفا والمروة؛ فإنها من شعائر الله. وأعظم خيرا أن يدرك مع ذلك المعاني الثاوية في هذا المسعى، ثم يغمس فيها قلبه كلما سعى بين الصفا والمروة. إن لهذا السعي قصة قديمة حين كان وادي مكة موحشا بلا أنيس ولا جليس. وجاء أبوالأنبياء بزوّجه ﷺ هاجر وابنها إسماعيل عند بيت الله الحرام. ثم تركهم هناك، ليس معهم إلا جراب من تمر، وسقاء من ماء ! "ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت: إذن لا يضيعنا".

هذه الكلمة هي ماء الحياة الذي يغتسل فيه المحرم وهو يسعى بين الصفا والمروة، ويمكث في هذه الحقيقة يرسخها بكل خطوة يخطوها بين الجبلين "آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا".

إن هاجر لم تخلق من طين آخر، وليست شيئا آخر لا يشعر بمشاعرنا، ولا يقلق لقلقنا. بل هي من جنسنا تحب الجليس والأنيس، وتستوحش من الفراغ والوحدة، وتخاف على نفسها وصبيها من الجوع والعطش،

ولذلك تبعته وسألته وكررت عليه المسألة حتى علمت أنه أمر الله ! وفي الحديث: "فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنْس" بضم الهمز ويجوز كسرها. كذلك كان إبراهيم يشعر بمشاعر الأبوة ولهفة قلوبهم، ولكن يُخضعها لأمر ربه طاعةً ويقينا. ولذلك حين وصل "عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾[سورة إبراهيم:٣٧].

لقد انتهى سقاء الماء، وأدركهم الظمأ، وبكى الصبي، "وجعلت تنظر إليه يتلوى (أو قال يتلبط)" ! وفي رواية أخرى للبخاري "كأنه ينشغ للموت" أي يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع !

تذكّر أخي أن هاجر لم تكن تعلم ماذا سيحدث كما نعلم، وأن نياط قلبها يمزقها بكاء صبيها وخشية الهلكة. فذهبت وهي في هذا الكرب، ليس في الوادي إلا هي وابنها وشبح الموت والعطش. حتى لو صرخت.. من يسمع صراخها ؟! فصعدت على الصفا وهي في هذا الكرب تبحث عن الفرج، وظلت تسعى إلى هذا الجبل تنظر منه، ثم تسعى إلى الجبل الآخر تنظر منه، وهي على حالها في الخوف والعطش والبحث عن الفرج والمخرج، وفي قلبها يقين راسخ "آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت:

إذن لا يضيعنا". وفي قلبها الأمل وحسن الظن كأنها تعلم بوجود الفرج حولها وهي تبحث عنه. وربها ينظر إليها وهي تسعى، وصبيها يتلوى، ويدخر لهما ينابيع زمزم يفجرها من تحت قدميه، لكنه الابتلاء لابد أن تستكمل أشواطه. حتى إذا انتهت من سعيها سابع مرة، وكأني بها بلغت ما وصفه القرآن عن أنبيائه: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [سورة يوسف: ١١٠]. "سمعت صوتا فقالت: "صه" تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف."

إن السعي بين الصفا والمروة يعلمنا معاني اليقين والثقة بالله العلي العظيم، ويعلمنا الأمل وحسن الظن بالله، ويعلمنا كيف يكون النصر مع الصبر، والفرج بعد الكرب. إن سعي هاجر بين الجبلين بحثا عن الماء أو الناس يعلمنا كيف يكون التوكل على الله مع بذل الأسباب واستكمالها.

إن الأمل يا سادة هو الذي يقيم صاحبه للعمل رغم التعب والخوف والظمأ، والإحباط هو الذي يأتي على البقية الباقية من الهمة والعزيمة فيقعدها، ويجلس صاحبها قاعدا يائسا ينتظر الموت. النصر والفرج والظفر في الطريق أمامك لكن دون ذلك ابتلاء وامتحان، ولا يوجد

طريق آخر يوصلنا إلى ذلك النصر دون أن نبتلى وننتظر ونصبر شوطا إثر شوط: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [سورة البقرة:٢١٤].

لم يرتو من ماء زمزم من لم يطعم فيه معاني الفأل والفرج !

لم يرتو من ماء زمزم من لم يذق فيه طعم القدمين الطاهرتين لإسماعيل حين جاءهم جبرائيل بالبشرى والأمل !

لم يرتو من ماء زمزم من لم يطعم فيه هذه الكلمة: "إذن لا يضيِّعنا" !

ليتنا نتداوى بماء زمزم من معاني الحيرة واليأس، ونرتوي من ماء زمزم كلما عطشت قلوبنا لليقين والإيمان.

ويظل المسعى يعلمنا دوما كيف نتشبث بالأمل واليقين مهما طالت خطواتنا في أشواط الابتلاء.



مع اشتداد الألم

التفاؤل مقرونٌ بالإيمان، وفي الشدة.. أكثرُهم إيمانا أكثرهم تفاؤلا:

﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾[سورة البقرة:٢٤٩].

وحين أصيب نبي الله يعقوب -عليه السلام- في ابنه الآخر، وزادت مصيبته، عظم أمله وتفاؤله بالفرج بعد الشدة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [سورة يوسف:٨٣]. وليس للأمل تاريخ انتهاء.. فالشهيد يستقبل حبل المشنقة بثغرٍ باسم، وهو يرى فيه معراجه للجنة والنعيم المقيم.



غلبتْ فئة كثيرة/توازن القوى

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [سورة آل عمران: ١٣]

وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

هناك حقائق كونية هي من خلق الله، وحقائق شرعية هي من أمر الله، ولا يمكن أن تتعارض إلا على وجهٍ خاطئٍ من الفهم. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]. وربما بالغ المرء في فهم النص الشرعي إلى حدٍّ يُلغي فيه نصوصا أخرى، ويصدم فيه حقائق كونية، ثم يصر على فهمه يحسب أنه الدين الذي لا مرية فيه ! ومن ذلك أن بعض الصالحين يفهم آية ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أن الفئة المؤمنة مهما قلّ عددها وعدتها، تغلب الفئة الكافرة مهما كثر عددها وعدتها، وذلك بإذن الله والله مع الصابرين. هل هذا الفهم هو حقيقة شرعية ثابتة ؟ ومن خالف هذا الفهم فهل هو

يخالف الدين وحقائقه ووعوده أم أنه يخالف هذا الفهم المغلوط؟ إن هذا الفهم لا يصح شرعا، وهو يخالف حقائق الشرع وضرورات الكون. ومثل ذلك لا يكون دينا بل فهما مغلوطا. لقد أمر موسى قومه بالقتال، ودخول الأرض المقدسة، وانتهى بهم الأمر أن قالوا له: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾[سورة المائدة:٢٤] فهل ذهب موسى عليه السلام وهو من أولي العزم مع أخيه هارون للقتال ؟! وهل قال سنغلبهم مهما قل عددنا ومهما كثر عددهم ؟! كلا، بل خاطب ربه وقال: "رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)" [سورة المائدة:٢٥]. وعدَّ ذلك عذرا يعتذر به لربه. كذلك أحكام الهجرة تخالف هذا الفهم الغالي لآية "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ" فإن القتال مواجهة، والهجرة انسحاب من مواجهةٍ فوق الطاقة، والبحث عن مكان آخر يجدون فيه حريتهم. ربما يعترض بعضهم أن الهجرة انحياز إلى الفئة المسلمة، وهذا يجيز الفرار من الزحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ [سورة الأنفال:١٦].

وهذا الاعتراض غير صحيح، فإن الهجرة إلى الحبشة لم تكن على هذا الوصف، وهذا يبين أن الهجرة شيء مختلف عن القتال في سبيل الله،

ولو كان المؤمنون يغلبون مهما قل عددهم، والمشركون ينهزمون مهما كثر عددهم، لسقطت أحكام الهجرة، ووجبت المواجهة على كل حال. وفي أحكام القتال ذكر العدد والتوازن، وقد كان في الأمر الأول الواحد يقابل العشرة، وبعد التخفيف أصبح الواحد يقابل الاثنين كما في سورة الأنفال. وهي على الحالين اعتبرت الموازنة ولم تطلق الكثرة والقلة. وبهذا يتبين أن الفهم الغالي لغلبة المسلمين مهما قل عددهم هو فهم مغلوط يخالف النصوص الشرعية الأخرى، كما يخالف حقائق الكون وموازناته وضروراته.

وهنا تنبيهان:

الأول: أن الكلام في توازن القوى على أهميته، إلا أنه يختلف في مقام الطلب عن مقام الدفاع، فالطلب والابتداء مقام اختيار وانتقاء، ويحتاج إلى تأكد أكبر من موازين القوى وتحقيق المصالح وغير ذلك. أما الدفاع فهو مقام اضطرار كمثل البلاد المحتلة وهم يدافعون عن أرضهم وعرضهم، وقد ابتلوا بِشَرٍّ المواجهة أو ما هو أعظم، من الاستسلام وما يلحقه من مخازي.

التنبيه الثاني: ضرورة مراجعة فهمنا للنصوص الخاصة ومقارنتها بالنصوص الأخرى. فإذا ظهر التعارض علمنا أنه لخطأ في فهمنا.

والإصرار على نصوص خاصة والإعراض عن النصوص الأخرى هو سبيل أهل الأهواء، ولن تجد صاحب هوى إلا وهو متمسك ببعض الأدلة وغالٍ في فهمها بما يخالف الأدلة الأخرى. والأهواء لا تتناهى، ولكل عصر أهواؤه وأدواؤه. وكما قيل في ضم النصوص بعضها إلى بعض يقال في ضم الحقيقة الشرعية إلى الحقيقة الكونية والضرورة العقلية. فما وجد من تعارض بينها فهو بسبب الفهم الخاطئ للأمر أو الخلق.

ثم إن النصر والظفر له أسبابه الشرعية والكونية، من الإعداد والقوة والتخطيط والعزيمة والصبر واجتماع الكلمة واختيار الوقت والمكان والنجاح في التحالفات وعزل الخصوم ونحو ذلك، والعاطفة وحدها مع الانتساب للإسلام لا تكفي في النصر وتحقيق المقاصد والمصالح

سورة الأحزاب

في هذه السورة تكرر معنى التعظيم لرسول الله ﷺ ورعاية حقه وعدم أذيته وكأنه هو المقصود الأعظم من هذه السورة. ففي هذه السورة ذُكِرت الأذية التي تلحق هذا النبي الكريم من أعدائه المشركين، وأعدائه

المنافقين، وأذية أصحابه، وأذية زوجاته، وأذية الجمهور العام وهو يبلغ رسالات الله، ثم ذكر الله في خاتمتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾ [سورة الأحزاب:٦٩].

وفي هذه السورة جاء التوجيه الرباني لنبيه الكريم في التعامل مع هذه الأذية، وهو أسوة حسنة لكل من أوذي من الدعاة والمصلحين .

حين قرأت سورة الأحزاب لفت انتباهي هذا المعنى المتكرر، وكأنه الخيط الناظم لمعاني السورة وآياتها. ثم راجعت الألفاظ فوجدت سورة الأحزاب هي أكثر سورة ورد فيها هذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وقد أشار ابن عاشور لتكرار هذا النداء في هذه السورة. ووجدت أن كلمة :(الأذية) ومشتقاتها هي الأخرى أكثر ما وردت في سورة الأحزاب ! ثم يأتي التوجيه الرباني الواضح: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [سورة الأحزاب:٤٨].

إن العدو يؤذي والصديق يؤذي كذلك، والبعيد يؤذي والقريب يؤذي كذلك. وهذه الأذية وإن اختلفت في دوافعها ومقاصدها إلا أنها تحمل معنى الأذى. وربما استطاع الرجل أن يقاوم ويحتمل الأذى من أعدائه ومناوئيه، ثم يعجز عن احتمال الأذية من أصحابه ومحبيه. بعض الأذى

يأتي من الحب؛ و(عشم المحب) تصعب مقاومته، وقد يترك الإنسان شيئًا من مصالحه وقناعاته رعايةً لعشم المحبين !

إن رعاية أذية الأعداء توصل الإنسان إلى سجنٍ قضبانُه من حديد، ورعاية عشم المحبين توصل إلى سجن آخر قضبانه من حرير ! ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧].

لقد ذكرت السورة أذية المشركين والمنافقين، المشركون يأتون إلى المدينة بجيشهم وعتادهم يريدون أن يستأصلوا شأفة هذا النبي ودعوته. والمنافقون في صفوف المسلمين يبثون الوهن والفتنة ويخذلون المسلمين في كربهم وشدتهم. ولهم ألسنة حداد، تصل إلى القلوب والعقول بشبهاتها وتعويقها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)﴾[سورة الأحزاب:١٨].

وأذية أهل الشرك والنفاق مشهورة معلومة. لكن هناك أذية أخرى تأتي من المحب وهو لا يشعر، أذية تأتي من فرط الحب والقرب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣]. ومع الحياء من جهة، والحب من جهة أخرى،

قد تستمر الأذية طويلا، وتأخذ من الجهد والطاقة ما تأخذ، وهي في النهاية على حساب الهدف الأسمى وتحقيق المشروع وبنائه.

كذلك تأتي الأذية من أهل البيت، وربما حصل التنافس البشري المعتاد داخل البيت، وكان على حساب هذا النبي الكريم، فجاء التوجيه الرباني وحسم هذا النوع من الأذى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [سورة الأحزاب:٢٨-٢٩]. وهو أقرب لأذية النفقة والتنافس عليها. وفي أذية القسم ونحوه:

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾[سورة الأحزاب:٥١].

وفي هذه السورة ذكرت قصة زواج النبي ﷺ من زينب وقد كانت زوجة لزيد الذي نسب لرسول الله قبل أن يحرم التبنّي. وكان لهذا الأمر تأثير خاص على نفسه ﷺ حتى صرح القرآن بعتابه: "وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ" تقول عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد ﷺ شيئا مما

أوحي إليه من كتاب الله، لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

ثم جاء التعامل اللائق بمقام النبي الكريم، وهو كمال الحب والتعظيم والدعاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧)﴾ [سورة الأحزاب:٥٦-٥٧]. ورعاية حقه وعدم أذيته يكون في حياته وبعد مماته: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [سورة الأحزاب].

والوصية للنبي الكريم، ولكل محب وتابع يدعو إلى الله ويعاني أمر الإصلاح:

﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)﴾ [سورة الأحزاب:٤٨]

القول السديد

الأعمال والاهتمامات تشبه البضائع المعروضة في السوق تنتظر زبائنها، والوقتُ والجهدُ يشبه المالَ المحدود الذي يشتري به المرء ما يحتاجه من السوق. والإنسان.. عمرٌ محدود، وطاقة محدودة، وهو مضطر -إن رشد- أن ينتقي ويختار من الأعمال والاهتمامات ما تتسعُ له نفقته، وأن يختار من ذلك أزكاها وأنفعها.

هذه الحقيقة البسيطة.. ربما تعاملنا في هذه الحياة وكأننا لا نعرفها، وترى عمرنا وجهدنا ننفقه في التافه من القول والعمل، ونشتري به ما يضرنا ولا ينفعنا، وكأن العمر والطاقة بحرٌ لا ينفد ! ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.[سورة الإسراء:٢٩]

هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم أذية الناس، وصرفوا فيها أوقاتهم.. هل يدركون أنهم أنفقوا أعز ما يملكون في أسوأ بضاعة وأردئها ؟! وأنهم فوّتوا على أنفسهم الأثمن والأزكى من الأعمال والاهتمامات؟!

إن في أذية الناس شهوةً تجعل صاحبها لا يستخسر فيها الوقت والجهد، وفيها ضراوة تزيد وتنمو فيستطيل على كل أحد، حتى يبلغ

بأذاه الصالحين والأولياء بل الأنبياء: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الصف:٥].

وبعد هذه الجهود والأعمار تكون عاقبتهم إلى خسار وبوار، فلا هم ادخروا أعمارهم وجهودهم لما هو أنفع، ولا هم حققوا أهدافهم ضد من يؤذونهم؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويكرمهم بالبراءة مما يقولون، وبالوجاهة والكرامة.

وفي سورة الأحزاب آيات كريمة تختصر الحقيقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [سورة الأحزاب٦٩-٧١].

وهنا معنى جميل، وسرٌّ عجيب؛ فإن الإنسان إذا راقب أقواله وحافظ عليها، واختار لنفسه السديد من القول، فإن الله سيصلح أعماله، ويغفر ذنوبه، وهذه غاية الآمال والأماني. إن اللسان يغرف مما في القلب، ويعبر عما يشغله من الفكر، وهو حين يختار لنفسه غير السديد من القول، فإنه اختار لعقله أن يفكر في غير السديد، واختار لقلبه أن يشتغل بغير السديد، وأعمالُ الإنسان لا يمكن أن تخرج عن حركة العقل والفؤاد. أما إذا التزم بالقول السديد، وجاهد نفسه على ذلك، فإن الأفكار الرديئة

تضمر في عقله وتتوارى، وقلبُه يكبر عن المعاني السيئة ويتسامى؛ فتصلح أعماله، وتغفَر ذنوبه، وذلك هو الفوز العظيم.

ولذلك تجد أن نبي الرحمة حثنا على "أقوال" محددة، نكررها كل صباح ومساء، ونكررها بعد الصلوات، وقبل النوم، وعند اليقظة. وربما نكرر الكلمة الواحدة عشرات المرات. هذه الأذكار ليست حركة للسان وحده، بل هي استدعاء لأجمل المعاني القلبية، والأفكار العقلية، وإمدادها بالحياة والنشاط والقوة، حتى يكون عمل الإنسان منسجما مع هذه المعاني الشريفة. ولن يحافظ الإنسان على الأذكار الشرعية، يقولها بلسانه، ويستحضرها بعقله وجنانه، إلا كانت له صلاحا في عمله، ومغفرة لذنبه. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]

ولن تجد أحدا منهمكًا في أذية الناس، ينفق فيها عمره وجهده، إلا وجدت الغيبة أذكاره وأوراده ! ومن ساءت أقواله، ساءت أعماله ولابد. عن يحْيَى بن أبي كثير، قال:"ماصَلَح منْطِقُ رجُلٍ إلّا عرفتَ ذلك في سائرِ عملهِ، ولا فسَدَ منْطِقهُ إلا عرفْتَ ذلك في سائرِ عملهِ".

ومن عناية الإسلام بالأقوال، ما جاء في الصحيحين، من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "لا يقولن أحدكم : خبثت نفسي، ولكن ليقل : لَقِسَت نفسي". وفي بيان معنى الحديث يقول ابن القيم في

أعلام الموقعين (١٥٠/ ٣): "نهى أن يقول الرجل: "خبثت نفسي" ولكن ليقل: "لقست نفسي"؛ سداً لذريعة اعتياد اللسان للكلام الفاحش وسداً لذريعة اتصاف النفس بمعنى هذا اللفظ؛ فإن الألفاظ تتقاضى معانيها، وتطلبها بالمشاكلة والمناسبة التي بين اللفظ والمعنى. ولهذا قلّ من تجده يعتاد لفظاً إلا ومعناه غالب عليه."

وكم يخطئ على نفسه وعلى من حوله من اعتاد لسانه لغة التشاؤم والإحباط، فإنه يبحث في النفس عن مواطن الهمة فيقعدها، ويظل صاحبها أقدر الناس على الحزن وتوقع المكاره، وأبعدهم عن العمل وصناعة المستقبل. أما لغة الأمل والتفاؤل وحسن الظن بالله، فإنها تنفخ في الروح الهمة، وتكشف الحكمة وراء الكربة، والفرصة داخل الأزمة، وتمد البصر والبصيرة إلى الشمس السابحة في الكون باتجاهه، تبدد ظلامه، وتجلّي نهاره.

إن المريض الذي اعتاد لسانه على الكلمة الطيبة، والفأل والأمل هو الذي يصلح عمله، ويذهب بحثا عن الدواء والشفاء، حتى يأذن الله بفرجه.

إن الجيش الذي اعتاد على الكلمة الطيبة، والفأل والأمل والروح المشرقة، هو الذي يصلح عمله، ويدخل المعركة بكامل طاقته واجتهاده. ولذلك ترى في المعارك أسدّ الأقوال وأحسنها هي لأصلحهم حالا

وفعالا، فهم الذين يقولون: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[سورة البقرة:٢٤٩]

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[سورة الأحزاب:٢٢].

أما أصحاب الأقوال السيئة فإنهم أسوؤهم حالا وفعالا: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[سورة الأحزاب:١٣]، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[سورة الأحزاب:١٨]، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[سورة الأحزاب:١٢].

صدق الله ومن أصدق من الله قيلا:

﴿قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

[سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

......

﴿وَهُدُوا إلى الطيِّب من القول وَهُدُوا إلى صراط الحميد﴾[سورة الحج: ٢٤].

زينةُ الصحبة

عالَمُ الصحبة والصداقة مليءٌ بالمفاهيم والتجارب. وقد يختلط الأمر على بعضهم فيغلو في خُلق جميل حتى يجور على خلُقٍ آخر. مع الصحبة لا يجمل التكلف، فإن التكلف أغلالٌ لا تصلح لمن أخلصتهم لودِّك وقربك. ولكن هل يصل الأمر إلى أن يرتفع الحياء والمجاملة بين الأصحاب، زيادة في الحب والاقتراب ؟!

إن العفوية وعدم التكلف ليست بديلا عن الحياء بين الأصحاب؛ فالحياء زينة الصحبة وجمالها. وقد استوقفني هذا التعبير القرآني في علاقة النبي الكريم محمد ﷺ مع أصحابه، وهو خير أسوة وقدوة. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذا الحياء في الصحبة هو الذي يحفظ بقاءها ونقاءها. فالصاحب الذي يستحق طول الصحبة هو الذي يحافظ على خلق الحياء بينهما، فتراه يستحي أن يؤذيه وهو لا يدري، وربما جاء على نفسه رعاية وحياء من صاحبه. ولا تكاد أن تثبت صحبة مع طول الأيام والليالي إلا ولها رصيد من هذا الحياء.

كان النبي ﷺ حييا مع أصحابه، ويخفض لهم جناحه باللين والرفق والرحمة. ما أجمل الصورة وأجمل العبارة ! ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥].

ترتبك علاقاتنا حين نطفئ بيننا هذا المصباح. الاحتكاك اليومي ينسينا هذا المعنى الشريف، وبهذا الأسلوب الجميل. صاحبك أولى بطيب حديثك، وأولى بتواضعك وعفوك. والصحبة أولى بهذا الحياء الجميل الذي يمد صنائع المعروف بأسباب الحياة.

يذكرون أعداءهم وينسون أنفسهم !

من الغبن أن تستبدّ العداوةُ بصاحبها حتى تُنسيه نفسه وأهدافه. وأكبر هزيمة أمام عدوك أن تذكره وتهتم له أكثر من اهتمامك بنفسك. أيُّ تكريم نمنحه العدو حين يصبح محل القيادة في تفكيرنا واهتمامنا ومشاعرنا؟! وأيُّ امتهان لأنفسنا حين ننساها بسبب أعدائنا؟!

إن الشيطان هو العدو الأكبر لابن آدم، ورغم ذلك، فإن الهدف من خلق الإنسان هو عبادة الرحمن وليس عداوة الشيطان.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [سورة الذاريات:٥٦].
ولن يكون من المفلحين من اشتغل بذم الشيطان وكُرهه والتحذير منه حتى أضاع الغاية من خلقه.

إن المبالغة في العداوة والاهتمام بالأعداء أكثر من الاهتمام بأنفسنا وتحقيق أهدافنا أمرٌ واقع، وهو في غاية الضرر على قلوبنا، وغاية الخطر على مشاريعنا.

أما القلوب فإنها تتشوه وتمرض إذا غلبت كراهيتُها محبتَها، وحضر أعداؤها وغاب أحبابها، وانشغلت بأعداء الله أكثر من اشتغالها وتعلقها بالله. وهذا لا يعني إغفال جانب العداوة والبراءة، فإن العداوة ضرورة لازمة، وواجب شرعي حين تستكمل أسبابها وأركانها، ولكل أمة ودين ومذهب أعداء، لكنّ هذا كله لا يكفي للاسترسال في العداوة والكراهية حتى تكون سيدة مشاعرنا، وقائدة عواطفنا، وحديثنا وهجّيرانا.

وانظر إلى الفتية من أصحاب الكهف، وقد زكاهم ربهم وحَكَم بإيمانهم وهدايتهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [سورة الكهف:١٣] لقوا من أقوامهم شدة وعنتا، وعانوا منهم خوفا ورهبا، حتى هربوا بدينهم إلى الكهف. وتركوا بيوتهم وأهليهم، وأموالهم وراحة بالهم، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾ [سورة البروج:٨]. حتى إذا أووا إلى الكهف.. قالوا.. فماذا قالوا؟! هنا تنكشف

المعاني الراسخة، وتنطق المشاعر الغالبة: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [سورة الكهف:١٠].

هذه هي القلوب التي زكّاها ربها بالإيمان والهداية، مشغولة بربها ونفسها أكثر من انشغالها بكرهها وعدوّها، رغم الأذية والبلاء، في قوة الشباب والفتوة، حيث التفاعل والمشاعر في ذروتها.

إنه درس بليغ في تربية قلوبنا، وترتيب أولوياتها. القلب الذي ينهمك في كراهية الأعداء يفكر في النكاية أكثر من الهداية، وينشغل بالانتقام أكثر من الالتزام. إن ما تسمعه الأذن وتراه العين هو غذاء القلب وقُوتُه، ومن المهم أن نعود إلى المواد المصنوعة لشبابنا، ونراجعها مرة بعد أخرى، ونتساءل كم حضر أعداؤنا فيها، وما حجم الكراهية فيها مقارنة بالمعاني الأخرى التي يحتاجها القلب ويقتات عليها.

إنه أمر غريب أن تشاهد شابا متدينا كان في مجالس الحفظ، ودروس العلم، محافظا على صلاته في المساجد، ثم تراه في ساحة الحرب يسترخص الدماء، ويستمتع بقطع الرؤوس، ويوثق ذلك ويفاخر به، وبعضها رؤوس كانت تنطق بلا إله إلا الله. لا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذا الحد من النكاية والانتقام إلا وقد عاش قلبه واغتذى على الكراهية، وغابت عنه المعاني المهمة من حب الله ورسوله ﷺ وعباده الصالحين،

والتواضع، وطلب الهداية لنفسه، وحب الهداية لكل الناس. وسبحان الله كيف تكسر هذه الآية حدة الكره، وتفتح باب الأمل، وتعيد الهدف في تعاملنا مع أعدائنا وهو تقديم الهداية على النكاية، وتقديم مصلحة الإسلام على نوازع الانتقام: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾[سورة الممتحنة: ٧].

لو أتيحت الفرصة هذه الأيام للانتقام من أعداء الله ومحاربيه، واستئصال شأفتهم، فلن نفكر في تفويت هذه الفرصة، وسنحكم على من فوّتها بالبوار والخسار، وكأننا لم نقرأ موقف نبينا ﷺ مع ملَك الجبال وهو يستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين ! لقد فوت رسول الله ﷺ فرصة الانتقام مراعاة لمصلحة الإسلام، وأملا في هدايتهم أو هداية ذراريهم. أعداد كبيرة هذه الأيام لم تسمع بالإسلام، وغاية ما سمعته دعايات مغرضة ضد الإسلام، ما موقع هذا الواجب من اهتمامنا ومشاريعنا؟! هذه واجبات الحب لهداية الناس وتبليغ رسالات الله.

تلك خطورة الكراهية واستبدادها وسيادتها على القلوب. أما خطورتها على المشاريع فإنها لا تنمو ولا تنهض حتى ندخر جل تفكيرنا للبناء؛ عمارة القلوب بالإيمان، وعمارة الحياة بالحضارة والعمران. التعليم والصحة والجيش والإدارة والصناعة والاقتصاد ستهزل وتضعف إذا كان الحديث ضد العدو هو أهازيجنا المفضلة. والكره وحده لا يهزم

عدوًا، إنما يُهزم بالعلم والنظام ووضوح الرؤية. لقد انشغلنا بأعداء المرأة عن المرأة، وانشغلنا بأهل التغريب عن مشاريع النهضة والبناء، وانشغلنا بذم الصهاينة والصفويين عن بناء أمتنا. ثم نحسب أننا على شيء !

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [سورة الكهف: ١٠].

وفاء

شيءٌ يشبه الذاكرة.. والإلف.. والحنين.. وكرم الطباع والأخلاق.. ذاك الوفاء ! لا ينبت إلا في الأرض الطاهرة، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

تَفقِدُ العلاقات والقرابات تاريخها وجمالها، وحنينها وأشواقها، إذا وَجدَت نفوسًا بلا وفاء.

وفي القرآن وصَفَ الله عبده الصالح وهو يبلغ أشدَّه، ويبلغ أربعين سنة، في مشهدٍ عجيب من الوفاء؛ وفاء مع العباد ورب العباد، وفاء

مع الكبار والصغار. فهو لا ينسى ولا يتنكر لنعمة ربه، ويظل وفيا لربه بالشكر والدعاء والثناء الحسن. ولا ينسى فضل أبويه ومعروفهم واحتمالهم ويذكرهم في مناجاته لربه. ولا ينسى الذرية من بعده دعاء وشفقة. فهو موصول بوفائه بالسابقين، وموصول باللاحقين. لا يعيش في عزلةٍ من الأنانية: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ (وَعَلَى وَالِدَيَّ) وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [سورة الأحقاف:١٥].

في موقف الدعاء يظهر الوفاء، فإنه حديث القلب حيث تزول أسباب التصنع والرياء . وقد عظَّم الله الوفاء والأوفياء؛ فوكَّل الملَك الكريم إذا سمع المسلمَ يدعو لأخيه في ظهر الغيب، أن يؤمِّن الملك ويدعو له بمثل ذلك. فهل هناك أعذب من صوت الوفاء والنقاء، هذا الصوت الذي يتجاوب له الملك الكريم كلما دعا وتضرَّع. روى مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ : آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ ".

إننا نمنح أقواما صفونا وبرنا وودنا، وربما ننسى أيادٍ وفية سترتفع كثيرا بالدعاء لك بعد رحيلك والإياس من بِرِّك وعطائك. هذه الأيادي الوفية

تستحق منا أن نصافحها كثيرا، وأن نمنحها حبنا وقربنا وصفونا. إن الوفاء شعور عجيب لا يعرف التمييز والعنصرية، بل تجد القلب الكريم يتعدى علاقته بالإنسان، وتراه وفيا لأرضه، وفيا لذكرياته، وفيا للحياة التي أنفق فيها عمره. يقول أحد الأعراب: "إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوُّقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه". لا تمزّق دفاترك القديمة.. أصدقاءك، أساتذتك، جيرانك. هنا عبقٌ خاص تستعيد به العافية والحياة. إن بعض الناس لا يتذكر الوفاء إلا حين يفقده من الآخرين، وينسى أنه هو الآخر مخاطب بالوفاء،؛الوفاء عطاء ونقاء، لا يميز بين الصغار والكبار، ولا يفرق بين الإنسان والمكان. انشغل بوفائك عن وفاء الناس، واعلم أن الملائكة معك في وفائك، تسمع دعاءك، وتردُّ وفاءك. وربُّك هو السميع البصير.

التفاؤل عبادة

التفاؤل أمرٌ متعلق بالمستقبل، والمستقبل في ملك الله وحكمه، ومن الأدب مع الله أن يحسن العبد ظنه بربه الذي يملك هذا المستقبل ويسيره بحكمه. التفاؤل يتعدى النظر للمستقبل.. إلى مالك هذا المستقبل -سبحانه-. وهو الرحمن الرحيم، والعليم القدير، ومهما قدَّر من أمرٍ

فلِكمال علمه وحكمته. وقد ذكر الله في كتابه أن المنافقين يظنون بالله ظن السوء، ويحسبون أن الله لن ينصر دينه وأولياءه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)﴾ [سورة الفتح: ١٢]. وتوعدهم الله بعقابه وأليم عذابه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ * عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ * وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ * وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [سورة الفتح:٦].

والظن السيء بالله سبب الهم والغم واضطراب النفوس، كما أخبر سبحانه عن المنافقين يوم أحد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]. إن تفاؤل المؤمن من حسن ظنه بربه، وهو من أجلِّ العبادات، وقد يصل التشاؤم بالعبد إلى سوء الظن بالله والعياذ بالله. إن بعض التحليلات للمستقبل تنتمي لمدرسة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [سورة الأحزاب: ١٣]. وربما توقع أحدهم الشر فأصبح يتمنى صحة توقعه، وهذا من شؤم التشاؤم والتنبؤ به.

وكما كان التفاؤل من حسن الظن بالله، فإنه من انتظار الفرج، وفي مدرسة يعقوب -عليه السلام- يتعلم المؤمن الثقة بالله وانتظار فرجه، مهما طال الزمان. ولاتزال هذه الآية الكريمة سلوة كل محزون ومكروب، ترفع وجوههم إلى السماء رضا وأملا: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [سورة الطلاق: ٧].

فأشارت إليه

أيها الحزين لتهمةٍ رخيصة كاذبة بَهَتك بها شانئوك.. لا تحزن، ولا يذهب عمرك حسرات وأنت تريد أن تدفعها وترفعها. فهذه مريم عليها السلام يشهد لها الصبي في مهده، ويتكلم ببراءتها بلسانٍ مبين، ولازال أهل الفجور يكذبون ويلاحقونها بالكذب والبهتان. ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾[سورة مريم: ٢٧-٣٣].

هل يوجد أعف من مريم عليها السلام ؟! هل يوجد أظهر وأصدق من شهادة الصبي في مهده ؟! ومع ذلك لم تسلم من الأذى والبهتان ! ذاك مقام عظيم.. يجمع صاحبه بين البراءة والصبر على الأذى، فيجمع الله له أجر العفة والبراءة، وأجر الصبر والاحتساب. كذلك هي الصدِّيقة بنت الصدِّيق أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ينزل القرآن ببراءتها وعفتها في

آيات بينات، ولايزال الملايين يكررون التهمة والكذب والبهتان ! هل يوجد أكثر عفةً من أمِّنا عائشة ؟! وهل يوجد دليل أظهر وأصدق من القرآن الكريم ؟! ومع ذلك لم تسلم من الأذى والبهتان ! وأكثر من ذلك سيد الخلق أجمعين الصادق المصدوق ﷺ، صدقه أظهر من الضياء، وتأتي الآيات والمعجزات المتتابعات على صدقه ورسالته، ولايزال الملايين من الخلق يعتقدون كذبه وادعاءه -بأبي هو وأمي ﷺ-.

فإذا رأيت أن خصومك قد بهتوك بما ليس فيك، فاعلم أن الله يريد لك فضلا زائدا، يجمع لك فيه بين البراءة ونقائها وشرفها، والأذية وصبرها وأجرها. وهذا الأجر مما لا يتطلبه العبد ويسعى في اكتسابه، لكن يصبر ويحتسب إن ابتلي به، ويطمع أن يكون مع هذه الثلة الطاهرة المطهرة، في براءتها وصبرها.

إن الأعداء الشانئون إذا تطلبوا عيبا فلم يجدوه، اخترعوا كذبة غادرة واستدلوا لها بالشبهة والإمكان. إن الباغي يتمسك بشبهة الولد من غير والد، ويترك البرهان المبين في شهادة الصبي في مهده بلسان مبين. ويتمسك بشبهة الخلوة بين رجل وامرأة ويترك البرهان المبين في القرآن الكريم. إن استحضار هذه الحقائق يخفف من ألم الاتهام تأسيا وعزاء بهؤلاء الأكارم والأكابر. وهو في الوقت ذاته يجعل الوقت والعمل موفورا فيما يفيد من الإعراض عنهم، والتزود من عمل البر والإحسان.

إن حديث أهل الإفك لا ينقص من الأعمار، ولا يضر إلا أذى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

[سورة آل عمران: ١٢٠]

على خُطى الصدّيق

حالةٌ عصيبة تلك التي عاشها أبوبكر الصديق، تولّى كِبْرَها رأسُ المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول. واستهدف فيها عِرَض رسول الله ﷺ ، وعِرض أكبر أصحابه وأحبهم إليه؛ فهي زوج رسول الله، وابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. وظلت المدينة شهرا على هذا الحال العصيب، حتى وقع في ذلك بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. لقد كان لأبي بكر خصوم شانئون وشامتون، من اليهود والمنافقين. وكان أبوبكر إذ ذاك لا يعلم على وجه اليقين بالبراءة، فهو في حالٍ عصيبة؛ يظن بابنته خيرا، ويسمع قالة السوء، ويعلم ما يخفيه أعداؤه في صدورهم من غلٍّ وضغينة.. وأمرُ العرض أمرٌ عظيم. وبينا هو على هذه الحال، علم أن قريبه مسطح الذي يصله وينفق عليه دون انقطاع، قد شارك القوم في اتهام ابنته وفلذة كبده !

ما أبلغ الألم في قلب الصديق من كلمة مسطح، فقد كان أولى بنصرته وحميته، في هذه المدينة التي تضم يهودًا ومنافقين لا يرقبون في سمعة الصديق إلًّا ولا ذمة. لقد كان أولى بنصرته وحميته من أجل ما بينهما من وثاق الإيمان وهم قد آمنو وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وشهدوا جميعا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان. وهو أولى بنصرته وحميته من أجل وشائج القرابة ومودتها. وأولى بنصرته وحميته من أجل إحسانه وعطائه القديم الذي لم ينقطع. ما الذي حملك يا مسطح على مشاركتهم في هذا البهتان العظيم ؟! وعائشة هناك مع أمك تدفع عنك كلمةً عابرة قالتها أمك حين عثرت في مرطها : "تعس مسطح" قالت عائشة وهي في غفلتها عن بهتان المنافقين وما كانوا يمكرون: "بئس ما قلتِ؛ أتسبين رجلا قد شهد بدرا؟!". وعندما علمت عائشة بما يتحدث به الناس بكت بكاء شديدا "حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي". ولما تنزّل الوحي ببراءة الصديقة بنت الصديق، وانجلت الكربة، بقي في نفس أبي بكر شيء على قريبه مسطح، وعزم على عقوبته، وأقسم أن يقطع عنه ما كان يصله به ويحسن به عليه. يا الله.. هذا غاية ما يعاقبه به ! وما علم أبوبكر أن فئاما من المسلمين بعده، سيفتح الله عليهم من الخير والمال، لا يصلون به قريبا، ولا يحسنون به إلى ذي رحم. دون أن يصيبهم أذى أو سوء. إن غاية ما يعاقب به الصديق من خاض في عرضه، واتهم ابنته في تلك الحال العصيبة، حيث كان عدوه ابن أبيّ يتولى كِبْر هذه الحملة الباغية =

أنه يتوقف عن عطائه!

جدير بهذه العقوبة أمام هذا الموقف أن تعد من مآثر الصديق ومناقبه، فإنه عظيم كريم في فضله، ورحيم كريم في عقوبته. اكتفى بذلك دون أن يسيء إليه أو يبغي عليه، لكن ربه يريد له مقاما أعلى وأجلّ، يريد له أن يعفو ويصفح مهما كبر الذنب في عينه، وأن يتذكر إيمانه، وقرابته، وهجرته، وحاجته. وهذا مقام عظيم في العفو، والحرية من المواقف الشخصية. وهو مقام يتناسى ما بينه وبين غيره من الخلق، ويتذكر ما بينه وبين الرب سبحانه، فيتقرب له بالعفو مهما تألم؛ رجاء عفو الله وكرمه وإحسانه. كم نخطئ في جنب الله وهو يوالي علينا نعماءه، ثم نستغفره ونتوب إليه، فيغفر ويتوب. ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [سورة النور: ٢٢] فلما نزلت هذه الآية، "قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبدا" (متفق عليه).

وفي هذه القصة درس بليغ لأصحاب الإحسان والأيادي البيضاء.. إنهم لن يسلموا بهذا الإحسان من أخطاء الناس وزلاتهم. فإن هم أحسنوا من أجل الناس فهم وشأنهم، وإن هم أحسنوا من أجل الله فلا يقطعوا معروفهم وليعفوا وليصفحوا حبا في الله وفي عفوه ومغفرته.

يجب أن يكون الإحسان علاقة راقية عالية بين العبد وربه، فوق المواقف الشخصية.. وذلك مقام الصديقين . إن الإحسان في الإسلام ليس علاقة بين المحسن والمحتاج، بل هو علاقة بين المحسن وربه، في صفقةٍ رابحة يبتغي به النجاة من أهوال جنهم، والفوز بجنة الله ورضوانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [سورة الليل: ١٧-٢١]. وأولى من يدخل في هذا الوصف أبوبكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. إن إساءة قريبك أو من أحسنت إليه، فرصة سانحة لعبادة العفو، والتشبه بالصدّيق رضي الله عنه. وكيف سنعفو ونصفح ونواصل البر والإحسان دون خطأ أو إساءة ؟! الإساءة مؤلمة وهي في نظر الصديقين فرصة لأن يتجاوز المحسن ألمه، وأن يتعالى عن حظ نفسه، وأن يجدد العلاقة مع الله في هذا الإحسان. فإذا غلبتك نفسك وقطعت معروفك، فتذكر عودة الصديق -ولو بعد حين- وتشبه به في العودة والأوبة، ولو عزمت وأقسمت. وهنا معنى مهم فيمن أخطأ أو أساء، فإن الخطأ وارد على بني آدم، والتعامل معهم بشرط العصمة تعامل خاطئ. فإن مسطح على فضله وإيمانه وهجرته وجهاده وشهادة الله له فيمن شهد بدرا، زلت قدمه وأخطأ بلسانه. لكنه خطأ المؤمن الذي له ما يشفع له، وليس خطأ المنافق الخبيث عبدالله بن أبي بن سلول. فإذا رأيت خطأ أخيك فتذكر أخطاءك في جنب ربك، واغفر له كما تحب أن

يُغفر لك. وتذكر ما له من خير وإحسان، وحاذر أن تمعن النظر في خطئه حتى يلهيك عن حسناته الأخرى، وحتى يشغلك عن علاقتك بربك والتقرب له بالعفو والصفح. إن هذه المعاني لن تمنع الألم في قلبك من ذلك الخطأ، لكن ستمنع الألم من الانتصار عليك. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [سورة النور: ٢٢].

يُحِب المتوكلين

في طريقي لصلاة الفجر.. كان الإمام يقرأ القرآن بصوته الجميل، في هَدْأةِ من الدنيا كأنها هي تنصت لصوت القرآن. وحين سمعت الإمام يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ (يُحِبُّ) الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩]. كأني أسمعها أولَ مرة ! يكفي شرفًا وإغراءً أن يخبرك ربك بأنه يحبك حين يرى قلبك متوكلا عليه، ومتَّجِهًا إليه. وتلك عبادة القلوب التي لا يطّلع عليها إلا علام الغيوب.

كنت أقرأ هذه الكلمة موصولةً بغيرها فأغفل عن جلالها وكمالها، ولو لم ينزل في التوكل إلا هذه الآية لكانت كفاء وشفاء. ليس بينك وبين

أن يحبك الله إلا أن تنفض قلبك من التعلق بالعباد، وتفوض أمرك إلى رب العباد. شعرت بهذا النقاء وهذا الحب الإلهي الذي يستنزله العبد بالتوكل على الله. شعرت بالحرّيةِ والكرامةِ والقلبُ يعرض عن العباد ويتطلّع نحو السماء.

التوكل ليس كسلا وإهمالا للأسباب، بل هو قوةٌ وطهر ونقاء؛ تجعل الأسباب في يديك دون أن تستوطن فؤادك. التوكل على الله مقامٌ عظيم من مقامات التوحيد وتعظيم الرب سبحانه. وهذا ما يجعلنا نفهم تأكيد القرآن على التوحيد، وهو يبدئ فيها ويعيد.

التوحيد ليس فكرة بدل فكرة، بل هو حياة بدل حياة. الموحد هو الذي يستقبل زمانه بالثقة والسعادة والرضا لأنه مفوض أمره إلى الله: القوي العزيز، العليم الحكيم، الرحمن الرحيم. ومن لم يَطعَم قلبُه هذه المعاني فما عرف التوحيد إلا في الدفاتر والقراطيس. مع التوكل يتسع الغار الضيق الذي أحاط به الأعداء من كل جانب. مع التوكل ينفتق الطريق للنجاة من جيشٍ عظيم بقوته وعدته وعدده، يقوده الفرعون الأكبر، والبحر يحول بينهم وبين ما يشتهون. ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾

[سورة الشعراء:٦١-٦٣].

كلا.. إن معي ربي سيهدين. لا تولد فجأة في الضمير، بل هي قصة طويلة من العلاقة والتوكل وتعاهد القلب وشوائبه. لكنَّ موسى -عليه السلام- لم يجلس مع قومه ويترك الأسباب وينتظر الفرج من السماء، بل عمل كل ما في وسعه بقلبٍ متوكل ومفوض أمره إلى الله فكان الفرج والمخرج. ومحمد ﷺ لم يجلس في داره والقوم يأتمرون به ليقتلوه وينتظر الفرج من السماء، بل عمل كل ما في وسعه بقلب قوي متوكل على الله، فلما أدركه القوم في الغار قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة النساء: ٤٠] وكان الفرج والمخرج.

التوكل على الله قوةٌ وحياة وعمل وليس كسلا وضعفا وانتظارا. لن تخلو الحياة من هواجس المستقبل ومخاوفها، غير أن المؤمن يتخذ من هذه الهواجس والمخاوف فرصةً لعبادة التوكل وتفويض الأمر إلى الله. ولعمر الله إن ما يحصل في هذه القلوب من مقامات التوكل ومجاهداتها أثقل في الميزان مما يُعجِب الناس من أعمال الظواهر والجوارح. علِّق على جدار قلبك بخط جميل وظاهر هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: ٣]. واطرُدْ بها همومك ومخاوفك، وتحدّ به مكر الأعداء وكيد الفجار. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [سورة هود: ٥٥-٥٦].

بالصبر تُداوي عناء يومك، وبالتوكل تدواي هواجس مستقبلك: وَ ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾[سورة العنكبوت:٥٨-٥٩] ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾ [سورة إبراهيم: ١٢].

أيها المؤمن بربك.. لا تسمح لتحليلات المستقبل في (عقلك).. أن تهز التوكل على الله في (قلبك)؛ "إِنَّ اللَّهَ (يُحِبُّ) الْمُتَوَكِّلِينَ".

مَنْ هذا الذي يستحق توكلك وهو عبدٌ ضعيف مثلك، يُدركه المرض والهرم، وتأخذه السنة والنوم، ويخطفه الموت ولو بعد حين ؟! ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[سورة الفرقان:٥٨]. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾[سورة النساء:١٣٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾[سورة آل عمران:١٥٩-١٦٠].



خِيرة

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [سورة الفتح:٢٧].

والمؤمن إذا تشوّف لأمر ثم فاته، لا يفقد أمله، فربما أخره لأمرٍ يعلمه، وجعل من دون ذلك خيرا كبيرا. وقد اعتادت العامة أن تقول للشيء يفوتها مما تحبه وتنتظره: خِيرة. وهو معنى مشرق يحافظ على الأمل والتفاؤل. ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

التوحيد أعظم وأشمل من الفكرة

يلفت انتباهك وأنت تقرأ كلام الله هذه الحفاوة الخاصة بأمر التوحيد،

فهو يبدئ فيه ويعيد ! وأجرُه أعظم الأجور، بل هو الشرط اللازم لقبول العمل وحسن الثواب عليه في الآخرة. والشرك هو الذنب الأكبر الذي لا يغفر الله لصاحبه يوم القيامة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، وصاحب الشرك في نار جهنم خالدا فيها أبدا. مع هذه الحفاوة الخاصة بشأن التوحيد، يتأكد لدينا القصور والتقصير في فهمنا للتوحيد؛ فإننا نفهم التوحيد أنه فكرة صحيحة مقابل أفكار خاطئة، وهذا جزء مهم من التوحيد، لكن التوحيد أكبر من ذلك وأعظم. فالتوحيد هو نظام للتفكير يفرق بين الحقائق والخرافات، والتوحيد هو نظرة صحيحة للكون وخالقه ومبدأ الحياة وغايتها، والتوحيد هو وضوح لمصدر التشريع والأحكام، والتوحيد هو حياة أخرى مختلفة عن حياة أهل الشرك والوثنية. وكم نُقصِّر في حق التوحيد إن لم نتعامل معه بهذا الشمول والوضوح، ونعرف الفرق بين حياة أهل التوحيد وحياة أهل الشرك في كل جوانبها. القلب العامر بالتوحيد هو الذي يوقن بأن (الله أكبر)، وهو الذي ذاق طعم الحرية، والكرامة. التوحيد يعيد للقلب حياته، ويعيد للعقل نظامه، ويعيد للحياة سكينتها وسعادتها.

مع كل أمرٍ شرعي يحضر التوحيد، فالمسلم حين يشرب بيمينه مثلا فهو قد اختار في التشريع والأحكام دين الله، الذي يتلقاه من رسول الله ﷺ. المشركون في عهد النبي ﷺ كانوا يدركون أن الدخول في الإسلام يعني اختيار حياة بدل حياتهم الأولى، ولو كان الأمر مقصورا على كلمة تقال،

لقالوا هذه الكلمة وعشر كلمات غيرها.

ما الذي نستفيده من هذا الفهم والشمول لمعنى التوحيد؟ إننا نستطيع بهذا الفهم أن ندرك السبب وراء الحفاوة الخاصة في القرآن بأمر التوحيد. وبهذا الفهم سنحرص على معرفة آثار التوحيد في نظام التفكير، ومعرفة آثاره في القلب والعقل والحياة والتشريع. إن في القلب عالمًا من الأعمال، وبالتوحيد يتجه هذا العالم نحو القبلة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾

[سورة الزمر:٢٧-٢٩].

رأيت ذات مرة صورة شابٍّ مسلم يحيط به أعداؤه من كل جانب، وهم أكثر منه قوة وأكثر جمعا، وحين يأخذونه سيأخذونه إلى عذاب شديد. فكان في نظرته الثبات والكرامة بما يهز النفوس ويدهشها، وأيقنت أن ذلك لا يكون إلا بحياةٍ سعيدة مع القرآن والتوحيد. لقد كان في تلك النظرة "الله أكبر" . التوحيد معايشة مستمرة، ورعاية وسقاية دائمة، بالأذكار والأوراد والصلوات وقراءة القرآن.



﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

جرّب ذات مرة.. واطلبْ من جلسائك "المسلمين" الإجابة باختصار عن هذا السؤال: إلى أيّ شيء يدعو الإسلام؟

بالتأكيد ستجد نفسك أمام جوابات متعدّدة، وهي في الغالب لا تخرج عن أحكام الإسلام العامة والخاصة.

جرّب مرة أخرى واسألْ نفرًا من غير المسلمين: ماذا تعرف عن الإسلام؟

ربما تجد هنا توافقًا بعض الشيء، لكنها في الغالب تدور حول القتال، والختان، والحجاب، وربما بلغ بنا الأمر إلى حد الموسيقى.

لاحظوا ياسادة أن السؤال هذه المرة عن العنوان المُعبِّر عن الإسلام، عن صفحة الغلاف -إن صحّ التعبير-.

هل هو أمر حسن أن تتعدّد الإجابات في عنوان الإسلام؟ هل هو أمر صحيح أن يتعرف غير المسلمين على ديننا بصفته قتالاً في سبيل الله، أو ختانًا، أو حجابًا؟

إن المسلمين يتفقون أنه لا يجوز أن يُزاد في الإسلام حكم، أو يُنقص

من الإسلام حكم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾[سورة النحل:١١٦]. فالأحكام الشرعية -حِلاًّ وحرمة- حق خالص لربنا سبحانه. ولكن ماذا عن "عنوان الإسلام" ووجهه الذي يعرفه الناس به، ويميزون بينه وبين باقي الملل والديانات، هل هو حق متاح لكل محبٍّ للإسلام ومنتسب إليه؟

أما في شؤون الدنيا ودعواتها وشركاتها وتجمعاتها فإنهم يولون الاسم والعنوان والشعار عناية فائقة، اختيارًا واحترامًا، ولا يسمحون لأحد أن يعبث بشيء من كلماته أو رموزه أو ألوانه. ولهم في ذلك علامات تجارية ومنافسات ومسابقات مشهودة. ولا غرو، فإنها أسماؤهم ووجوههم التي يعرفهم بها الناس.

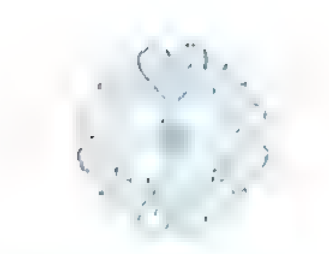
أما الإسلام فإنه أصبح اليوم كثير الوجوه والأسماء، وكأن الحكم إذا ثبت شرعًا فإن ذلك يكفي لأن يتحول عنوان الإسلام ووجهه، وتلك مشكلتنا الخطيرة.

وفي قصة أبي سفيان مع هرقل في صحيح البخاري عظة وعبرة؛ فإن هرقل دعا نفرًا من قريش وكانوا من أعدائه آنذاك، يسألهم عن محمد ودينه. وكان أبو سفيان -وهو المتحدث عنهم- أحرص ما يكون على الطعن في رسول الله -ﷺ- والإزراء بدعوته ودينه أمام

هرقل عظيم الروم.

وكان مما سأل عنه هرقل كما يقول أبوسفيان: "فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة(صلح الحديبية) لا ندري ما هو صانع فيها. قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه". وهذا يعني أن كل الأسئلة الأخرى لم يكن لأبي سفيان أي مدخل يشوّش بها على رسول الله ودعوته، حتى ذلك السؤال الذي سأله هرقل: "فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة".

تأمّل جمال الإسلام ووجهه الذي يُعرف به، وتأمّل إحكام الأمر حتى إن ألدّ الأعداء لم يجد فيه مدخلاً ومتّسعًا. وإذا قارنت بين جواب أبي سفيان -عدو الله ورسوله آنذاك- أمام هرقل عظيم الروم، وجواب جعفر بن أبي طالب -صاحب رسول الله وداعيته- أمام النجاشي ملك الحبشة، علمت حجم تفريطنا وتقصيرنا في حق الإسلام حين أصبح عنوان الإسلام وصفحة غلافه حقًا متاحًا لكل مسلم وغير مسلم.



التكذيب الخرافي

ارتبط العقل الخرافي بتصديق الأكاذيب والأساطير، فهو لا يملك القدرة على فرز الأكاذيب ورفضها، بل تجده يصدق كل ما وصل إليه ووافق هواه. ولذلك تجده يصدق الشيء ونقيضه، ويصدق ما يستحيل العقل قبوله. وإلا فكيف يقبل العقل أن يمنح أقدس الصفات وهي صفة الألوهية لصنمٍ من تمر يعبده ويعظمه، فإذا جاع أكله !

ولذلك فإن التوحيد لم يأت بفكرة بدل فكرة، بل جاء (بتفكير وفكرة)، جاء بنظام يتعامل مع الأخبار والأفكار، ويحرر العقول وأصحابها من ظلمة الخرافة والضلالة. ولم يعرف التوحيد حق معرفته من آمن (بأفكار) التوحيد وأهمل (تفكيره) ونظامه. العجيب في هذا العقل الخرافي أنه بقدر ما يتساهل في قبول الأكاذيب والأساطير، فإنك تجده يتشدد أحيانا فيرفض الحقائق الظاهرة التي يدل عليها الخبر الصحيح والعقل الصريح، بل يدل عليها الحس والظاهر ! إنه تكذيب بغير نظام، تكذيب خرافي يشبه التصديق الخرافي. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [سورة الأنعام:٧].

ففي الوقت الذي تصدق عقولهم الأكاذيب والأساطير، تجدهم هنا يكذبون الحس الظاهر الذي يصدقه الخبر الصادق والعقل الظاهر. ومن هنا نعلم أن العقل الخرافي لا يحسن التصديق كما أنه لا يحسن التكذيب. وأن الأدلة الظاهرة لا تنفع المرء حتى يتحرر من عقل الخرافة، ويفيء إلى رشده، فيكون تصديقه على بينة وتكذيبه على بينة. إن العقل الصحيح من جنود التوحيد وأنصاره، ولا ينتفع العبد بالآيات والبينات حتى يتحرر هذا العقل من سطوة الخرافة. فإن الخرافة تختطف صاحبها حتى يفقد القدرة على البصر والبصيرة.

ليسوا سواء

التعامل بالإجمال مع الأعداء دون فرز أو تفصيل، يعبر عن حالة عاطفية لا تركن إلى العقل ومعطياته المركبة، ولا تتفق مع العدل وأحكامه المتزنة. وفي القرآن تأسيس ظاهر للفرز والتفصيل في النظرة للمخالفين: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [سورة آل عمران:١١٣].

والسنة مليئة بالتفريق بين كافر وكافر، وعدو وعدو. إن فهم الاختلافات الداخلية بين أعدائك يجعلك أكثر قدرة على التعامل المختلف معهم،

وكسر اجتماعهم، والتأثير عليهم. أما الحكم المجمل الذي يجمعهم في سلة واحدة، فهو لا يعبر عن الحقيقة من جهة، ولا يمثل العدل من جهة أخرى، ولا يتيح الفرصة للتأثير وصناعة التحالفات من جهة ثالثة. غالب المواقف المجملة هي مواقف عاطفية بسيطة تستريح من عناء البحث والفهم، وتستريح من تبعات التأثير وصناعة التحالفات. لا ينبغي للأمة المسلمة أن تسمح للأكثر عداوة لها أن يستفرد ببقية أعدائها، وأن تترك له ساحة التأثير وصناعة التحالفات دون مزاحمة ومغالبة. الإسلام يجعلنا في موقف العادل الذي يفهم الفروق ويعتمد الفرز والتفصيل، ويجعلنا في موقف القوي الذي يفكر في التأثير ولا يكتفي بالخوف والهروب.

تذهب كثير من أوقاتنا ونحن نناقش هل هذه الطائفة من أهل الإسلام أو من أهل الكفر، وتذهب أوقات أخرى في إثبات عداوتها وخبثها.. وليكن، فماذا علينا أن نصنع في التعامل معهم ؟ هذا سؤال يقفز الأسئلة النظرية إلى السؤال العملي المفيد. وليكن عدوا.. كيف نتعامل مع هذا العدو ؟ هل نتعامل معه بالتحذير والهروب والأحكام المجملة، أم نتعامل معه بالفهم والتفصيل والتأثير ؟! إنه لن تنهض أمة حتى تعلم أعداءها وتتعلم كيف تتعامل معهم. والهروب يجعلك في موقف المدافع الضعيف، ويفوِّت عليك كثيرا من الفرص في كسر عداوتهم، وعزل الأكثر عداوة وضراوة.

إن المساواة بين أبي جهل والمطعم بن عدي، والمساواة بين أبي لهب وأبي

طالب.. ظلم في ميزان العدل، وجهل في ميزان العقل. إن الذين مزقوا الصحيفة الجائرة في الحصار لم يكونوا من أهل الإسلام، ومن أجار النبي ﷺ بعد رجوعه من الطائف لم يكن من أهل الإسلام. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ هي المفتاح الذي يوصلنا إلى العدل، والمفتاح الذي الذي يفتح المجال واسعا في الفعل والتأثير. لقد أراحوا أنفسهم مَن حكموا على أعدائهم حكما مجملا؛ أراحوا أنفسهم من عناء البحث والفهم، وأراحوا أنفسهم من تبعات الفعل والتأثير، ولكن من الخطأ أن نجعل هذه الراحة والكسل هي حكم الإسلام، وهي مقتضى الولاء والبراء.

يفسح الله لكم

للمجلس والجليس حقٌ وفضل، وقد جاء الإسلام بمكارم الأخلاق، فحث الجالس في مجلسه أن يُفسِح المكان للقادم إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [سورة المجادلة: ١١]. وهذا الأمر وإن نزل بسبب مجلس رسول الله ﷺ فإنه يشمل مجالس المؤمنين من بعده، فإن

المؤمن القادم للمجلس حقيق بالإيثار والتوسعة، والترحيب والكرامة. إن القرب من رسول الله ﷺ فضلٌ عظيم، وربما تمسك الرجل بهذا الفضل ونسي حق القادم في إيثاره وفضله وإحسانه.

وجاء الأمر بالإيثار والتفسح في المجالس حيث يكون للقرب من رسول الله ﷺ شرف وفضل تتشوف إليه النفوس المؤمنة، فكيف بغيره من المجالس ؟! القادم إلى مجلسك يشبه الضيف، ويشبه الغريب، ويستحق أن تفسح له في مجلسك، وحديثك، واهتمامك.. وجزاؤك موفور عند ربك: ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ومعنى أن تفسح له في المجلس أن توسع له في المكان، وتأخذ من بعض سعتك ليجد له مكانا ومُتَّسعا.

و مقصود الأمر هنا يتسع لأكثر من هذا، من البحث عن فسحة له في قلبك، وفسحة له في حديثك، وإكرامه وإيثاره بما يحب ربك ويرضى. إن مجالس المؤمنين تتواسع لهم وتتراحب بالإيثار، ومجالس غيرهم تتضايق عليهم بالأثرة والإعجاب. إن المجلس والمكان يضيق حتى يتفسحوا فيه، والوقت يضيق عن الحديث حتى يتفحسوا فيه، ومن مكارم الأخلاق أن تختار لجليسك ما ينشرح له صدره من الاهتمام والاستماع والكلام وتوسع له فيه. ومن عاجل نعمة المؤمن أن يجد الفسحة والسرور في الدنيا والآخرة. في داخل القلوب مجالس كريمة يجد المؤثرون لهم فيها مكانا ومُتَّسعا. وفضل الله واسع، وفسحته للمؤثرين ظاهرة وباطنة، والله واسع عليم.

التفاؤل وإخوانه

لا يعيش التفاؤل وحده في قلب المؤمن، بل هناك معانٍ أخرى تسكن قلب المؤمن، وباجتماعها يقطع الطريق إلى جنات ربه. ومن ذلك الخوف من عذاب الله، وقد أخبر الله عن حديث أهل الجنة وهم في نعيمها وخيراتها: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ * إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾[سورة الطور: ٢٥-٢٨]. وخير التفاؤل ما أعان البر والعمل الصالح، وما كان بجوار المعاني الأخرى المبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

رحلة الشكر والإحسان

العطاءُ والإحسان رحلةٌ طويلة، وكثيرٌ من النفوسِ الطيبة والمعادنِ النبيلة تبتدئ هذه الرحلة، وتسير في طريقها الطويل. والأصعب في

هذه الرحلة هو الاستمرار فيها إلى نهاية المطاف؛ فإن المحسن يتعرض لمواقف صادمة ومؤلمة قد تصل به إلى أن يفقد ثقته في الناس، ويفقد علاقته بالإحسان؛ فإنه يواجه جحودًا ونسيانا ممن أحسن إليهم، وهذا أهون ما يلقاه في هذا السبيل. ويلاقي الأذية والتتبع والإساءة، كأنما أساء إليهم ولم يحسن ! وربما أحسن إلى أحدهم المرة بعد الأخرى ثم طلبه ولم يقدر على مساعدته، فينقلب عليه كأنه لم يحسن إليه قط ! وقد يبغي عليه آخرون ظلما وعدوانا، فينظر في وجوه البغاة المعتدين، فيرى فيها بعض من أحسن إليه، واقفا في صفهم، يرمي بسهامهم، ويسير في ركابهم ! إن هذه المواقف وأمثالها تصيب المحسن بصدمة وحيرة، صدمة من مقابلة الإحسان بالإساءة، وحيرة في استيعاب ذلك وتفسيره. وعسيرٌ على الإنسان بعد ذلك أن يكمل طريقه في الإحسان، وأن يجد صفاءه ونقاءه وتضحيته وإحسانه.

وفي سورة الإنسان ثلاث آيات، فيها الزاد والراحلة لمن أراد أن يكمل حياته في طريق الإحسان. وفيها قصة الشكر: من أول الإحسان إلى آخر الشكر. يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا (شَاكِرًا) وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [سورة الإنسان: ١-٣]. هذه قصة الإحسان الأول، فالإنسان هنا يولد وهو مغمور بالنعمة، وقد جعل الله له الحرية إما شاكرا وإما كفورا. فيبتدئ المسلم

المحسن رحلته الطويلة بالشكر، وهذا الشكر يوجب عليه أن يعبد الله وحده لا يشرك به أحدا. ويوجب عليه أن يحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه. وهنا تأتي الآية الثانية في الشكر: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ (جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٩)﴾ [سورة الإنسان: ٨-٩]

فهذا المحسن تمتد يده بالإحسان لكل ضعيف محتاج، حتى أولئك المحاربين المفارقين له في دينه، عندما يشتد عليهم الوثاق، ويصبحون في حال الأسر والضعف. أيُّ قلب هذا الذي يسع عطفُه وبرُّه المسيءَ والمفارق والمحارب ؟!

وهنا تبتدئ الضمانة الأهم لمواصلة البر والإحسان في رحلته الطويلة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ (جَزَاءً وَلَا شُكُورًا)﴾.الزهد في شكر الناس، وليس هذا زهدا في الشكر، بل القلوب مفطورة على حبه والفرح به، لكنه يريد شكرا خيرا من شكرهم، وجزاء خيرا من جزائهم. فيأتي الجواب ملاقيا لهذا الزهد في شكر الناس، والطمع في شكر الله. يأتي الجواب بعدما يذكر ربهم ما أعطاهم من عظيم نواله، وجميل بره وإحسانه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ (جَزَاءً) وَكَانَ سَعْيُكُم (مَّشْكُورًا) (٢٢)﴾ [سورة الإنسان:٢٢]. فلما زهدوا في جزاء الناس وشكرهم، أحسن الله جزاءهم، وشكر الله مسعاهم

! هذه قصة الإحسان والشكر، فالمسلم تبدأ حياته بإحسان ربه إليه، وتنتهي بشكر الله له. والمسلم هنا مشغول بشكر الله والإحسان إلى الخلق، ينتظر جزاء ربه وشكره، وزاهد في جزاء الخلق وشكرهم. إن قلب الإنسان ما لم يتعلق بانتظار الشكر من ربه، تعلق بشكر خلقه، وانقطع إحسانه بنسيانهم وجحودهم وإساءتهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سورة سبأ: ١٣]. إن آية "لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا" وآية "إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا" شفاء وعافية من كل الجراحات التي يشعر بها المحسن في طريقه، وهي عفو وعافية يغمس فيها المحسن قلبه كلما تجدد إحسانه، وتجددت إساءتهم. ومَن أحسن إلى الخلق ينتظر شكرهم وجزاءهم مات مغبونا محسورا، ومن أحسن إلى الناس وهو زاهد في شكر الخلق طامع في شكر الخالق، اتصل إحسانه، وتجدد بره ونواله، وعاش حياته في عفو وسعة، ينتظر حسن المآل والعاقبة.

النفس اللوامة

هناك مساحةٌ داخل النفس البشرية:

- لا تصل إليها سلطة.

- ولا يستغني عنها مجتمع.

هذه المساحة هي من أخطر المساحات الموجودة في هذه الدنيا؛ فإنها من جهةٍ بعيدة عن عين الرقيب، ومن جهةٍ أخرى لها تأثير بالغ في كثير من القرارات والأعمال، ولا يتماسك مجتمعٌ دونها ! ومن حسن خلق الله لهذا الإنسان أن أودع في هذه المساحة معاني الفطرة، والتفريق بين الحَسَن والقبيح، وفي هذه المساحة المُضمَرة عن عيون الخلق تتواطأ النفوس على تفضيل الصدق وذم الكذب، ومدح السخاء وذم البخل، ومحبة الوفاء وبغض الغدر والخيانة، وأمثال هذه القيم. إنها (سلطة الضمير).. نعم هي مساحة مُضمَرة ومستترة (=ضمير)، ولها سلطة على تحديد القيم وتأنيب المرء في قراراته وأفعاله(= اللوّامة). وهي شيء عظيم أقسم الله به في كتابه الكريم، فقال جل جلاله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [سورة القيامة:٢]. و(لا أقسم) صيغةٌ من صيغ القَسَم، كما قال سبحانه في موطن آخر: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [سورة الواقعة: ٧٥- ٧٦]. ويشبه هذا القَسَم قول العربي: لا والله لَأفعلنَّ كذا. فالنفي قبل القَسَم يؤكد القسم وينفي ما يخالفه.

لقد اكتشف العالَم أساليبَ كثيرة في الرقابة والشفافية والمحاسبة، وذهبوا في تطويرها إلى أمدٍ بعيد، ورغم ذلك بقيت مساحةٌ مُضمَرة مستترة عن

كل هذه الأساليب، فاضطروا هنا (لأداء اليمين). فترى رئيس الدولة حين يستلم مسؤوليته يقف أمام الناس ليؤدي اليمين الدستورية. هذه اليمين من أجل تلك المساحة الخطيرة داخل النفس التي لا تصل إليها سلطة، ولا تنفذ إليها عين الرقيب !

ولخطورةِ هذا الضمير والنفس اللوامة فإنه لا يتماسك مجتمع دون العناية والرعاية لها. حتى تلك المجتمعات الفاسدة التي نشأت علاقاتهم على الإفساد والسلب والنهب وقطع الطريق، لن تتماسك علاقتهم -وياَلَلْغرابة- إلا بالركون إلى هذا الضمير والنفسِ اللوامة واحترامها. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا (تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)﴾ [سورة النمل:٤٨-٤٩]. فانظر إلى هذا الرهط الفاسد المفسد، كيف احتاجوا للقَسَم الذي يَصِلُون به إلى ضمائرهم، حتى يكونوا عصبة واحدة.. وهم في حال إفساد، يعزمون على القتل والكذب ! وهذه مفارقة عجيبة حين يُقسِمون ويتفقون على أن يفسدوا ويكذبوا ! ذلك أنه لن يستقيم اجتماعهم وأمرهم إلا ببقاء شيء من الضمير يركنون إليه، وهم بتقاسمهم بالله يستبقون الشيء من الضمير ويحافظون عليه. ولو نكث أحدهم لاعتبروه خاطئا محتقَرا ولاموه وأنَّبوه !

في هذا الضمير نظامٌ متكامل من القيم واحترامها، ومن المحاسبة والتأنيب، ومن الصدق والشفافية.. مهما تظاهر أمام الخلق وتوارى عن عيونهم وهرب من قانونهم. ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [سورة القيامة: ١٤-١٥].

وإذا نحن علمنا عظيم هذا الشأن حتى أقسم الله بها في كتابه فماذا عسانا أن نعمل من أجل هذا الضمير ومن أجل النفس اللوامة ؟!

إننا في أمسّ الحاجة ألا نغفل في برامجنا الدينية والتربوية عن استصلاح هذه المساحة من النفس البشرية، والحفاظ عليها.. باعتبارها مستودَع القيم وتماسك المجتمع. هنا تسكن المروءة والقيم والأخلاق، وهنا يسهر الحارس بلومه ووعظه وتأنيبه، وهنا تختفي الأصباغ والخداع وتظهر الحقائق دون تزييف. إن منابر المساجد يجب أن يصل صوتها إلى هذه المساحة من النفس البشرية، وألا يذهب صوتها في تتبع المظاهر حيث يعمل القانون ورقباؤه، بل تصل إلى خطاب الضمائر والسرائر. الأصواتُ الندية في المحاريب هي غذاءُ الضمير ومادة حياته. المواعظُ الصادقة والقول البليغ هو صوت مسموع لهذه النفس اللوامة. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾ [سورة النساء: ٦٣]. هذا التوجيه الرباني لنبيه ﷺ بشأن المنافقين، الذين فسدت ضمائرهم، واحترفوا التحايل بالظواهر والأيمان الكاذبة.

إن الضمير يحتاج للمساعدة بالقوانين المحافظة التي تبعد الإنسان عن مواطن الفتنة والهلكة. فالمسؤول الذي يجد نفسه دون قوانين وإجراءات حازمة مع الفساد ستزل قدمه وتتخوض يده في المال العام إلا من رحم الله. أما إذا وجد القوانين في مساعدة ضميره فإنه سينجو إلا ما ندر. كذلك الفتيان والفتيات الذين يجدون أنفسهم في بيئة تساعد ضمائرهم سيكونون أسعد بالصلاح والفلاح. ليس مقبولا أن نعول على هذا الضمير في الوقت الذي نبني فيها قوانينا على مخالفته ومحاربته. أما الفرد الذي يبتلى بالعيش في مثل هذه البيئة فإنه سيكون أمام مهمة تشبه القبض على الجمر !. لكن يجب أن يحافظ القانون والمنع على موقعه المساعد للضمير، ويبقى في رتبة المساعد والتابع. أما إذا أسرفنا في الاعتماد على المنع والقانون فإنا سنجعله متبوعا والضمير تابعا. وسيهزل الضمير جرّاء إهماله كما تهزل العضلة في الجسد حين تهملها وتحرمها من النشاط والحركة. وهذه القضية في غاية الأهمية والحساسية للأبوين مع أبنائهم، والمسؤولين مع من دونهم. الإسراف في المنع يضعف المناعة. والإسراف في المنع لا يبني فردا ولا مجتمعا منتميا للقيم والأخلاق والصدق والشفافية، بل يبني فردا ومجتمعا راضخا لسلطانها يتحيّن الفرصة للهروب والتمرد. ويبني في النفس قدرتها على التحايل والتظاهر والتهرب من عين الرقيب وسلطانه. إن المجتمع المسلم المحكوم بقوانين الشريعة والقيم والأخلاق لن يسلم بالكلية من النفاق،

ولكن هناك تعاملٌ نبوي يحصر النفاق في أضيق صوره، وهناك مجتمع آخر يمد النفاق بطاقات جديدة من الناس والمهارات. من أجل المناعة لا تهمل المنع ولا تسرف فيه. من أجل هذه الضمائر وعافيتها وقوامتها اجعل قوانين بيتك أو مجتمعك في خدمتها، لا تهملها ولا تسرف فيها. في المجتمع المسلم الضمير أولا والقانون ثانيا. ومتى تقدم هذا القانون وبالغ في تتبعه وسلطانه فنحن نخدم النفاق من حيث لا ندري. وسبحان الله كيف جاءت الآية في ترتيبها مع حالات النفاق: ﴿(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾ [سورة النساء: ٦٣].

يقول ابن جرير في تفسيرها: "فأعرض عنهم وعظهم"، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأسَ الله أن يحلّ بهم، وعقوبته أن تنـزل بدارهم..". إن حالة النفاق هي في التظاهر والتحايل على القانون، فالحل ليس الإسراف فيه الذي سيفتق للنفاق الحيل، بل الحل هو مخاطبة الضمائر ووعظ السرائر بالموعظة المؤثرة والقول البليغ.

ما أعظم هذه النفس اللوامة.. التي أقسم العظيم الجليل بها: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [سورة القيامة:٢]. وهنا معنى مهم وهو السياق الذي جاء فيه هذا القَسَم، لقد جاء هذا القَسَم ثانيا، وجاء قبله القَسَم بيوم القيامة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١)﴾ [سورة القيامة: ١]. إنه المنتهى

والغاية، وهو المقصود الأعظم، وكل نجاح لا يوصل إلى الفوز والنجاة يوم القيامة فإنه شأن تافه. وكأن الطريق إلى الفوز يوم القيامة هو هذه النفس اللوامة، هو النجاح المعتمِد على صلاح الضمير. ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [سورة الطارق:٩-١٠]. لو كان ربنا يريد أن تصلح الدنيا بالقوانين وحدها، لم يمهل إبليس اللعين إلى يوم القيامة، الفلاح في عالَم الإنس والجن مبني على الاختيار والحرية، ومبني على صلاح الضمير. ويمكن أن يكفر ولد الرسول أو زوجه في بيته. والنجاة في هذا اليوم العظيم يوم القيامة، يبدأ من الضمير والنفس اللوامة. أما الصلاح في الظاهر مع فساد السرائر فإنه طريق موصل إلى الدرك الأسفل من النار. أيها المؤمن بالله.. الحريص على نجاتك ونجاحك يوم القيامة.. التفت إلى ضميرك، وتعاهده بالاستصلاح، بالصدقة التي تخفيها يمينُك عن شمالك، بعبادة السر، بالانتصار على شهوتك حال خلوتك، بتعاهد قلبك الذي لا يراه الخلق وتجديده بالعفو والتواضع والحب والرحمة. ضميرُك يا صديقي.. هو المكان الأهم في حياتك، وهو المسؤول عن أعمالك وقراراتك، وعليه التعويل في نجاحك وفلاحك، وهو يستحق الكثير من العناية والرعاية. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥].

الهوى يزيّن لصاحبه الباطل

صاحب الحق يسعد بالحق والحجج والبيات الدالة عليه، وصاحب الباطل يستعيض عن البراهين بالركون لباطله وتزيين الشيطان له، ولكن شتان بين تزيين الهوى وبينات الهدى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤)﴾ [سورة محمد:١٤]. إن صاحب الهوى يطول به العهد، ويُعرِض عن ربه وبيناته، ويزَّين له باطله حتى يحسب نفسه من المهتدين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧)﴾ [سورة الزخرف: ٣٦-٣٧]. فالمؤمن لا يفتأ يعرض مواقفه وقناعاته على نور الوحي، يصححها ويتدارك فواتها؛ فإن الإنسان بغير الرجوع إلى نور الوحي يمكن أن يركن لعمله ويتزين في نفسه مهما كان سيئا وقبيحا، فإن فرعون ذاته تزين عمله في نفسه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [سورة غافر: ٣٧].

وتذكر أن خطأ خصمك لا يعني صوابك ورشادك، فلا يغرك خطأ الآخرين لتركن إلى مواقفك. فإن العبرة في الهداية هي أنوار الرسالة،

وانشغال اليهود بضلال النصارى لا يجعلهم من أهل الهداية، وكذلك انشغال النصارى بضلال اليهود. وكم اغتر صاحب الخطأ بخطئه بسبب انشغاله بخصمه ويقينه بخطئه، ويحسب بعد ذلك أنه من المهتدين.

وللأخلاق سلفٌ ونسب

كثيرا ما نقارن العقائد والأفكار بعقيدة أهل السنة والجماعة، وهذا خير ولاشك؛ فإن الأمة قد دخلها من الأهواء والبدع والانحرافات ما شوّه صفاء عقيدتها التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه. والغفلة عن أمر المعتقد سيجعل العقائد المنحرفة تتسلل إلى قلوب الناس وعقولهم، وتحرفهم عن حقائق القرآن وأنوار الوحي والرسالة. ولكن أين نحن من هذه اليقظة والمحاذرة فيما يخص الأخلاق؛ فإن للأنبياء وأتباعهم أخلاقا يعرفون بها. فتجد الرجل على أخلاقٍ لا تشبه أخلاق أهل السنة، ثم ننسبه للسنة وسلف الأمة من أجل أفكاره ومقالاته فحسب !

ما الذي جعلنا نحصر الانتساب في موافقة الأقوال والمعتقدات دون الشمائل والأخلاق ؟! ما الذي يجعلنا نحاذر من الخطأ في القول حتى لا نخرج من شرف السنة ثم نغفل عن الأخلاق وبوائقها ؟!

إن للأخلاق نسبا يشبه نسب الأفكار، وللأخلاق خطرا وشأنا عظيما، ويبعد أن يفارق الرجل أخلاق أهل السنة وسلف الأمة ثم يطمع في شرف الانتساب إليهم والالتحاق بهم. وربما أخطأ المرء في بعض الأقوال العلمية وكان أسعد حظا بالسنة ببركة تشبهه في أخلاقهم وشمائلهم المعروفة.

إن الذي يمارس العنصرية له سلف آخر غير سلف الأمة، ذلك الذي استنكف من السجود لآدم -عليه السلام- لأنه مخلوق من طين وهو مخلوق من نار. لقد استكبر على آدم بعنصره ! ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [سورة الأعراف: ١٢].

والذي يمارس الفتنة وإيغار الصدور هو أبعد عن سلف الأمة وأقرب لمن ينزغ في صدور العباد يبتغي الفتنة وأسبابها: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)وَإِمَّا (يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾[سورة فصلت:٣٤-٣٦].

وذلك الذي يتجسس ويسترق السمع هو أبعد عن السنة وسلفها، بل هو متشبه بالشيطان: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [سورة الصافات:١٠].

إن أهل الحق وسلف الأمة لهم أخلاق كريمة يعرفون بها، ومن طمع في التشبه بهم، واللحاق بهم في درجاتهم العليا، فليعتن بصحة أخلاقه كما يعتني بصحة أفكاره وأقواله ومعتقداته. وأول ما افترق الخلق، وابتدأ الانحراف؛ كان بسبب الكبر والحسد الذي أفسد قلب الشيطان وأخلاقه وامتنع من السجود لآدم -عليه السلام-. إن لكل خلقٍ سلف، والقرآن يخبرنا بأخلاق الأنبياء في كرمهم وإحسانهم، ويخبرنا بأخلاق أعدائهم.. فاختر لأخلاقك السلف الصالح، وتشبَّه بهم في أخلاقهم كاجتهادك في التشبه بأفكارهم ومعتقداتهم وأقوالهم.

آيات لكل صبّارٍ شكور

الآيات المبثوثة في الكون ظاهرةٌ بيِّنة، لن تتهجَّى حروفَها حتى تدخل مدرسة الصبر والشكر، وتُقيم الزمان الطويل في أروقتها ورَدَهاتها. في مدرسة (الصبر والشكر) تتعلم كيف تقرأ الآيات، كيف تنتفع بها، كيف تتعرف على حروفها وهجائها، ومعانيها ومقاصدها.

لِلآيات المبثوثة في الكون وفي تقلبات الليالي والأيام صوتٌ بالغ لا تسمعه أذنك إلا بالصبر والشكر. أرأيت الحروف المرصوفة أمام أمّيٍ لا

يقرأ ولا يكتب.. إنها ليست سوى رموز وطلاسم لن يستطيع أن يتبيّن معانيها أو يفهم مراميها. كذلك الآيات المكتوبة في الكون، والأيام التي يداولها الله بين الناس، هي آيات بينات مكتوبة بحروفٍ لا يقرأها إلا كل صبار شكور. في أربعة مواطن مختلفة تأتي هذه الآية العجيبة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة إبراهيم ولقمان وسبأ والشورى ! يعيش جهلا وأمِّية وعمى وغفلة عن آيات الله كل من أخفق في أخلاق الصبر والشكر.

إن الذي واجه البلاء والشدة وفقْدَ النعمة بالصبر والخلق النبيل، وواجه الرخاء والمنحة والنعمة بالشكر والخلق النبيل؛ هو الذي تشف بصيرته فتنكشف له الآيات، ويحسن قراءتها، ويسمع خطابها، ويتعظ بمعانيها. بين المسلم الصبور والشكور وآيات هذا الكون وتقلبات الأيام لغةٌ وخطابٌ وحنين. وهو معها بصيرٌ ذو عينين، وسميع ذو أذنين، وله قلب شهيد.

إن الهوى عمى يحجب صاحبه عن البصيرة، والمؤمن لا يستبد به هواه وعاطفته حال النعمة فيبطر، ولا يستبد به هواه وعاطفتة حال الشدة فيجزع. بل يغلب هواه وبطره بالشكر والتواضع، ويغلب هواه وجزعه بالصبر واليقين: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [سورة الحديد:٢٣].

إن أسرع الناس استعجالا للنعمة هو أسرعهم نسيانا لها إذا حضرت، ومن ترك الصبر في الأولى جديرٌ بأن يترك الشكر في الأخرى. ومن هدايات القرآن قصة النبي الكريم سليمان، وقصة النبي الكريم أيوب. أما سليمان عليه السلام فهو موعظة الشكر لأصحاب الرخاء، وأما أيوب عليه السلام فهو موعظة الصبر لأصحاب البلاء. وجاءت هاتان القصتان في سورة (ص) متتابعة، وكلاهما عند ربهما محل الثناء والرفعة : سُلَيْمَانَ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [سورة ص: ٣٠]، وأيوب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [سورة ص:٤٤]. وخليق بالمؤمن أن يتعامل مع مكدرات حياته في يومه وليلته أنها دروس يومية تزيد لياقته في الصبر والاحتساب، وتمنحه الفرصة أن يكتب عند الله صبّارا. وخليقٌ به كذلك أن يتعامل مع مواطن بهجته وسعادته في يومه وليلته أنها بفضل الله وحده، ليست بمواهبه وقدراته وعلى علم عنده، بل هي من الله ليبلوه أيشكر أم يكفر.

إن النعم وما أكثرها اختبارات وابتلاءات وفرص في الطريق لتُكتَب عند الله من الشاكرين. ومن رزق الصبر والشكر فهنيئا له كمال البصيرة، التي لا تغفل عن آيات الله وعظاته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.



عبادة الجمال

الجَمالُ مقصدٌ عام في أحكام الشريعة، فإن الله جميل يحب الجمال. ولئن انشغل الناس بجمال أشكالهم وصورهم، فإن المؤمن يشكر ربه على هذا الجمال، ويشتغل بجمال أقواله وفعاله وأخلاقه. ألا يستوقفك هذا الوصف في موطن الخلاف والطلاق: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾ [سورة الأحزاب: ٤٩].

وحين تسمع هذا الجمال المأمور به حتى في حال الفراق والطلاق، تتذكر أحوالا من قلة الذوق والجمال في حال القرب والوفاق، فضلا عن الخلاف والطلاق ! إن خير ما ندعو به إلى الإسلام هو هذا الجمال، الذي يخطف قلوب الناس مهما ابتعدوا عنا في أديانهم أو ألوانهم أو لغاتهم. الوجه البشوش، والبسمة المشرقة لا تحتاج إلى ترجمان، ولا تعترف بحواجز اللسان، وتبلغ القلوب بسحر جمالها. إن أعظم الناظرين إليك هو ربك ومولاك، ومن الإحسان في العبادة أن تتجمَّل أمامه بالنظافة، وسنن الفطرة، وجمال الأخلاق التي لا تستثني أحدا، ولا تستثني حالا بما فيها الخلاف والطلاق. بل يأتي الأمر بهذا الجمال والمعروف والإحسان في حال القتل العمد، وهل هناك شيء ينهك المعروف والإحسان ويبرر

تركه مثل القتل العمد ؟! حتى هذه لا تخرج عن معايير الجمال الرباني والأمر به: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]. وهو ذات المعنى المأمور به في الطلاق: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩].

وفي محاجّة المشركين المعاندين يظل المؤمن في كمال أدبه وجماله، وما أحوج المدافع عن الإسلام لقيم الذوق والجمال. الجمال الذي يكسو حجته، ويُزيِّن بيانه، فيخطف العقول ببرهانه، ويسحر القلوب بذوقه وجماله. وقف الخليل يحاجُّ عن ربه أمام كافرٍ عنيد، وصلت به البجاحة إلى أن يدعي مقاما لا يصلح إلا لله. ومع حب إبراهيم لربه، وغيرته على دين الله، فقد اكتفى بالحجة القوية عن السباب والشتيمة التي يستحقها هذا الكافر، ولكن لا تليق بلسانٍ يدافع عن الحق وينافح عنه: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨].

إن هذا الكافر لا يستحق هذا الرقي والعفة في لسان إبراهيم، ولكن يستحقها هذا الدين الذي يدافع عنه إبراهيم، ويستحقها هذا الجمهور المحايد الذي يريد الداعية أن يُقبل على الحق والهداية.

فهذا الدين دين الجمال، والجمال مأمور به في دين الله، لا يستثني خلافا

وطلاقا، ولا يستثني قتلا وعدوانا، وهو سيرة الأنبياء مع أكثر الناس كفرا وعنادا، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [سورة طه: ٤٤]. لا عبرة بأخلاقٍ تذروها رياح الخلاف، ولا عبرة بجمال لا يستر خلافاتنا، ولا يُزيِّن دعوتنا ومواعظنا.

الدعاء الشرعي

في المسجد الحرام تسمع صوتا مختلفا حين يدعو الإمام للمسجد الأقصى. تأمينٌ مختلف.. يحكي الجرح الغائر في أعماقنا، والحلم الجميل الذي يجمع أقصانا لأقصانا. لكننا ندعو كل عام، بل ندعو كل ليلة، ومازال الأقصى في قبضة الصهاينة ! لقد وعدنا ربنا في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة:١٨٦]. هنا نحتاج أن نبحث عن الدعاء الشرعي الموعود بالإجابة، والآية من كتاب الله يفهمها المسلم بجمعها مع غيرها من الآيات، وبالنظر في هدي النبي ﷺ وسيرته؛ فإنه قد أرسله ربه ليبين للناس ما نزل إليهم. إن الذي يصلي بغير وضوء وهو قادر عليه لا يطمع في قبول صلاته، ولا يرجو أجرها ونوالها ونهيها عن الفحشاء والمنكر، لأنها صلاة

على غير الصفة المشروعة. كذلك كل العبادات.. لها شروط وصفات، لا تُقبل إلا بها.

إن الدعاء الذي نفهمه ونتعامل به شيء متمايز عن العمل، وربما يغني عن العمل، ولذلك تجد القلوب التي اجتمعت في المسجد الحرام، والأصوات التي ضجت بالتأمين للمسجد الأقصى، تعود إلى مضاجعها دون أن تشرع في مساهمة عملية لإنقاذ المسجد الأقصى ! ولسان حالنا: لقد دعونا ربنا وهذا يكفي ! ليس هذا الدعاء الذي وعد الله بإجابته، بل الدعاء المقرون بالعمل، الدعاء الذي يحفز الروح للعمل وكأن خبرا من السماء جاءها بأن ذلك لك.. فانهض له. الدعاء الذي يتوّج العمل بعد أن بذل (أقصى) ما في وسعه. ذلك دعاء الأنبياء ولا أكرم عند الله من الأنبياء. تأمل كيف يطلب الله من أنبيائه العمل حتى حين تحضر المعجزات في الفرج والمخرج. فنوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [سورة هود:٣٧].

وموسى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [سورة الشعراء: ٦٣]. وماذا عسى أن يصنع بعصاه ؟! إلا أنه أمرٌ يؤكد عمل العبد وبذله للسبب.

ومريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [سورة مريم:٢٥]. لم يسقط الرطب دون أن تهز مريم جذع النخلة، بقوتها

الضعيفة ويدها الواهنة من الهم والغم وآلام المخاض.. لكنها قوتها التي تستطيع فاسّاقط عليها الرطب جنيا. وأيوب: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ * هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [سورة ص:٤٢].

هذا كله وقت المعجزات التي تأتي على غير السَنَن المعتادة، نصرا من الله وفرجا. ومع ذلك يطلب الله شيئا من العمل. إن اقتران الدعاء بالعمل هو فيما يستطيع ويطيق، أما إذا عجز عن العمل فإنه لم يفرط ويتكل. وإبراهيم عليه السلام أخذه قومه وألقوه في النار وهو لا يقدر على شيء من العمل، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنجاه الله مما كانوا يمكرون.

إن الاستغناء بالدعاء عن العمل المقدور ليس عملا شرعيا، ولا تشمله آثار الدعاء الشرعي. لقد دعا رسول الله ربه يوم بدر، وأطال في الدعاء حتى قال له صاحبه الصدّيق شفقةً عليه: يارسول الله بعضَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. هذا الدعاء الشرعي المقرون ببذل كل الوسع في العمل واتخاذ الأسباب. إن من يدعو ربه أن يدخله الجنة ثم لا يدخل الإسلام وهو يعلمه ويعرض عنه فإنه لم يدع ربه الدعاء الشرعي. هذا في خير الآخرة ومثل ذلك في خير الدنيا.

الدعاء الشرعي هو المتصل بتقوى الله وفق الوسع والطاقة، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

فإذا فقد الإنسان القدرة على العمل، ودعا ربه فإنه قد استوفى ما عليه،

واتقى الله بما يستطيع، وربه قادر على أن ينصره ويجيب دعوته كيفما شاء، وفي أي وقت شاء. سألت أحدهم: كم مرة دعا ربه بسعة الرزق؟ فقال: كثيرا كثيرا. قلت: وماذا صنعت من عمل ومحاولة واجتهاد في سعة الرزق أثناء عامك هذا؟ فلم يجد شيئا ! هل هذا هو دعاء الأنبياء ؟! هل هذا هو الدعاء الشرعي ؟! الذي يستغني به صاحبه عن بذل الوسع والطاقة في العمل. إن أمة تترك ساحة الاقتصاد والإدارة والقوة العسكرية والبحث العلمي دون اجتهاد كاف، وعدوّها يعمل بكل جد واجتهاد في أسباب القوة والتفوق.. لا تطمع في النصر عليه، ولا ترضي ضميرها بأنها ترفع يديها للسماء وتدعو على عدوها بالمصائب والقوارع.

إن الذي أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة هو الذي أمرنا بالعمل، وهو الذي أمرنا بالتأسي برسول الله ﷺ ولم يكن يستغني بدعائه عن عمله.

مرآة الأخلاق

الاختبار الحقيقي للأخلاق ليس في التعامل مع الوجهاء والكبراء، بل في التعامل مع الضعفاء.. حيث لا تطمع في نفعهم، ولا تخشى من ضرهم، ولا يبقى حينها إلا حقيقة الأخلاق. الخادم والفقير والضعيف،

هم من يكشف هذه الأخلاق. وقد اقترن الرياء بالبخل، فإن الرجل المرائي لا يجد ما يدفعه لنفع المسكين.

أما الرجل المخلص فإن النفع والرحمة والأخلاق الحسنة ليست زينة يتزين بها أمام الخلق حتى يخلعها إذا خلا ببيته، بل هي عبادة وطبعٌ نبيل. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [سورة الماعون: ٦-٧].

إن الضعفاء والمساكين والجيران ونحوهم هم المرآة الكاشفة لأخلاقك، تنظر إليها بلا تزيين ولا تخييل. فالكلمة الطيبة، والصدقة، والمعونة حيث تغيب أسباب الرياء، هي الكاشفة لصدق الأخلاق، وعمق الإيمان. قال رسول الله ﷺ: "والصدقة برهان" رواه مسلم. أي برهان على صحة إيمانه.

مسؤولية الكلمة

من أجل كلمةٍ واحدة يقولها الزوج لزوجته: "أنتِ عليَّ كظهر أمي".. لا تحل له إلا بعد كفارةٍ شديدة، إما أن يعتق رقبة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا. من أجل كلمة واحدة تُفرَض عليه هذه الفرائض، وتلك حدود الله وللكافرين عذاب

أليم. هذه مسؤولية الكلمة في الإسلام، ولن تستقيم الحياة إذا فقدت الكلمة مسؤوليتها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾ [سورة المجادلة: ٢-٤].

إن الإنسان يدخل الإسلام بكلمة، ويخرج منه بكلمة، ويتزوج بكلمة، ويطلق بكلمة.. والكلمة لا تفقد مسؤوليتها إلا إذا فقد المجتمع أسباب العز والبقاء. لقد كان الناس إلى عهدٍ قريب يحترمون الكلمة كاحترام الأمم للدساتير. ويحتمل الإنسان كل شيء في سبيل حماية كلمته وصيانتها من الخُلفِ والكذب. وإذا أعطى الإنسان لغيره (قالة) كانت عليه مثل السيف المصلت. إن الكلمة تحمل شخصية صاحبها وقيمه وكرامته، ومن أهان كلمته بالخُلْف والتغيير والتبديل، فقد أزرى بنفسه قبل أن يضر غيره.

إن آيات المجادلة وما فيها من حُكْم الظهار وكفارته، تعلمنا مسؤولية الكلمة، وتربية النفس والأبناء على حفظها، والتعامل معها بكامل الاحترام والمسؤولية.



الكذب

لم يَعُد الكذب في زماننا نزوةً عابرة، ولم يعد سلوكا مشينا يلابسه بعض الأفراد فحسب، بل أصبح صناعة واحترافا وذكاء وتجارة ! الأموال الطائلة تنفق اليوم في صناعة الكذب العالمي وتشويه الحقائق، حتى تشك في بعض الأحيان حين تشاهد بعض وسائل الإعلام وما تقترفه من كذب ممنهج.. هل هي مع ذلك كله تعد الكذب من الرذائل والمنكرات ؟! لقد اتفقت الأديان، وتواطأت الفطر على قبح الكذب واستنكاره، ومع ذلك هو اليوم صناعة رائجة ! في القرآن استوقفني هذا الوصف في شأن الكذب: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [سورة المائدة: ٤١]. فالأذهان تنصرف في العادة لمن يقول الكذب لا لمن يسمعه ! إن هذا الوصف يكشف معانٍ مهمة في صناعة الكذب الخبيثة، فإن الكذّاب لا يجد له سوقا رائجة حتى يجد آذانا تُدمن على سماعه، فجاء الوصف على وجه المبالغة "سمّاعون" لكثرة الاستماع. وهذا الكذب شؤم وإثم يلحق الكاذب والسَّماع. لأنهم يصنعون سوق الكذب وبضاعته الخبيثة. وهذه طريقة الشريعة في حسم مادة الشر، فإن الإثم والشؤم يلحق الكذّاب والسمّاع، وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه. وكلمة "سمّاعون" تذكرنا بوصف الكذاب في

الحديث الشريف، فإنه يفعله ويتطلّبه ويدمن عليه: "وما يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكذِبَ حتَّى يُكتبَ عند الله كذَّابًا". ومن العجب أن يظل الرجل على كذبه وتحرّيه حتى يلقى الله، فيحلف لربه كما كان يحلف في الدنيا، ويكذب كما كان يكذب، ويحسب أنه على شيء ! قال الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)﴾ [سورة المجادلة: ١٨].

لقد ارتبط الكذب بالخيانة والغدر وتهتُّك القيم والأخلاق، ولا ثقة للعاقل بنصرة كذاب وخائن، فإن من كذب وخان قومه سيخونك ولو بعد حين. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾ [سورة الحشر: ١١-١٢].

أما المؤمن فإنه يتنزه من رجس الخيانة والكذب والغدر حتى مع أعدائه، فالعداوة في قانون المؤمن محكومة بالقيم والأخلاق، وهي وضوح وشفافية، وصدق وشجاعة، لا كذب ولا خيانة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [سورة الأنفال: ٥٨]. فهذا العدو تظهر عليه أمارات الغدر والخيانة، لا

يبدؤه أهل الإسلام بالحرب حتى ينبذوا إليه ويعلموه، ليكونوا في العلم والاستعداد سواء . فالمؤمن بربه يحفظ ذمته وعهده حتى مع عدوه الذي ظهرت عليه أمارات الغدر والخيانة. أما الكذاب الخائن فإنه يخون قومه ويتحالف مع عدوه، ثم يخون عدوه، ذلك أن الخيانة طبع راسخ في نفسه. يشبه الكذب عند الكذاب، يكذب ويتحرى الكذب، ويظل كذابا في حياته وبعد مماته عندما يلقى الله فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء. كما أن سَمَاع الكذب هو الآخر عادة وإدمان حتى يكون "سمّاعا للكذب". ولولا هؤلاء السمّاعون للكذب ما راجت بضاعة الكذب، وما قامت سوقها.

لانفضّوا من حولك

في بيئة العلم يحدث بعض القسوة والجفوة من المشايخ وأهل العلم، وجلَّ من لا يخطئ. أخطر ما في الأمر أن يغيب معيار الخطأ والصواب، ويصل الاعتذار لقسوة الشيخ وفظاظته إلى قبوله وتبريره، ومطالبة المستفيد وطالب العلم بالصبر والاحتمال. وربما ذكروا في ذلك قصصا لبعض السلف هي أحوج للاعتذار والاستغفار من الاقتداء

والاستبشار. إنه لا يوجد أحد من الخلق أعظم فضلا ومِنَّةً من رسول الله ﷺ، ولا يوجد أحد أعظم حبا وأدبا من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ومع ذلك يخبر ربنا أنه لو كان فظا غليظ القلب لا نفضوا من حوله، رغم فضله وعلمه العظيم، ورغم حبهم وحرصهم الكبير: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩] فهل نلوم بعد ذلك طالب العلم إن ترك القاسي الغليظ من المشايخ، أم نلوم ذلك الشيخ الفظ الغليظ؟! إن كرامة الإنسان شيء مقدس، وعلمٌ أو عالمٌ لا يحوط هذه الكرامة بالحفظ والرعاية لم يعرف حق العلم، ولا يستحق الوقت الذي يقضيه معه.

إن مجيء طالب العلم إلى الشيخ والجلوس بين يديه، وسؤاله والاستفادة منه، شيء من الذل لكنه ذل مقبول يرفع الإنسان وينفعه، ولا يصل للكرامة بسوء. وهذا النوع من الذل هو الذي أوصى العلماء باحتماله في سبيل طلب العلم. أما ما وراء ذلك من سوء الكلام، وجرأة الأفعال فليس من حق العلم وحبه أن يحتمل ذلك ويصبر عليه. على أن الإنسان يفرق بين إساءة عابرة تستحق العفو والتسامح، وإساءة وغلظة دائمة. وخير العلم والعلماء ما حُفِظت معهم الكرامة، واتصل بهم الود ومكارم الأخلاق. إن وضوح هذا المعنى مهم بسبب ما تراكم في أدبيات طلاب العلم من التبرير لتلك الأخطاء، حتى غاب المعيار للصواب

والخطأ في هذا الباب. ومهمٌ كذلك للعناية بكرامة الإنسان واحترامها، ولا تطمع لرجل يقبل الإساءة ويستمرئ الإهانة أن يكون من أئمة هذا الدين، الذائدين عن حماه، والمبلغين لشرعه وهداه. إن بناء هؤلاء الأئمة لا يكون (بالمعلومات) فحسب، بل يكون ببناء العلم، والدين، والقيم.



البيان

لستُ أدري كيف استطاعت هذه الحروف المحدودة أن تملأ مكتباتنا أوراقا وكتبا ؟! كيف استطاعت هذه الحروف المعدودة أن تعبِّر عن كل أفكارنا ومشاعرنا ؟! كيف أخذها الشعراء فنسجوا منها ثياب الشعر الطويلة ؟! كيف حفظت هذه العلوم في هذا الوعاء الصغير من الحروف؟! يتعلم الطفل حروف الهجاء ويحسب نفسه قد تعلم ثمانية وعشرين حرفا، وهو لا يدري أنه أمسك بيده مفتاح العلوم وخزائن المعرفة ! كيف انطلقت كل لغة من حروفها القليلة فملأت فضاءها كتابة وبيانا ؟! ودون هذه الحروف كيف كنا سنبني العلوم، ونشيد الحضارة ؟! وكيف سنكتشف هذه المعاني في القلوب والعقول والفضاء ؟! سبحانك يا رب! ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [سورة الرحمن: ١-٤].

فهرس الموضوعات

لعلهم يتفكرون

قراءةٌ تفكُّريَة في آيات الكتاب العزيز

هذا هو الجزء الثاني من سلسلة «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».. قراءةٌ تفكّرية في آيات الكتاب العزيز. وقد لقي الجزء الأول قبولًا ولله الحمد والمنة، وسمعت من أهل العلم المتخصصين في هذا الباب ما أرجو أن يكون من عاجل البشرى، وأسأل الله ألا يحرمني من بشراه يوم ألقاه.





دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com /wojoooh
@wojoooh1

